الأسس الإبستمولوجية
لتاريخ الطب العربى

رؤية معرفية فى تاريخ الحضارات

دكتور

خالد أحمد حسنين على حربى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

2006 م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5274438 - الإسكندرية



الأسس الإبستمولوجية لتاريخ الطب العربي

الناشــــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنـى قبلـى السـكة الحديـد - مسـاكن دربالة - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Website

http:/ www.dwdpress.com

عنـوان الكتـاب : الأسـس الإبسـتمولوجية لتـاريخ الطـب العربـى - رؤية معرفية فى تاريخ الحضارات

المؤلـــف: د. خالد أحمد حسنين حربى

رقـم الإيـداع: ١٨٠٣٥ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى: 5 - 582 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿.. فأَمَّا الزّبدُ فيذهب جُفاءً وأمّا ما ينَفَعُ النّاس فيمكثُ فِى الأَرضِ..﴾

(سورة الرعد من الآية 17)

الإهـــداء

إلى

أبى وأمى

اعترافاً بفضلهما، وتعبيراً عن حبهما ..

ثمرة غرسكُما الطيب

ابنكما خالد



تقديم

يمثل الإسهام العلمى العربى فى مجال الطب حلقة هامة من حلقات سلسلة تاريخ العلم العالمى. فالانسانية جميعها تدين بالكثير لأطباء العرب والمسلمين الذين قدموا انجازات وابتكارات رائدة فى المجال الطبى، وذلك إبان فترة الازدهار الحضارى الممتدة من نهاية القرن الثانى الهجرى إلى أواخر القرن السادس الهجرى.

وقد كثرت الكتابات العربية والغربية التى تناولت فترة إزدهار الطب العربى. وقد شاركنا فى هذه المنظومة بدراسة عن أهم أعلام الحضارة العربية الإسلامية المبتكرين فى المجال الطبى، ألا وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، طبيب المسلمين بدون منازع وحجة الطب فى أوربا حتى بداية العصور الحديثة، وقد صدرت الدراسة عن دار ملتقى الفكر بالاسكندرية بعنوان: «الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ العلم العربى» عام 1999.

لكنّنا فى هذا الكتاب نتساءل عن المراحل السابقة على فترة ازدهار الطب العربى، تلك التى أدت إلى ظهور كبار أطباء المسلمين من أمثال الرازى، وابن سينا، وابن الجزار، والزهراوى... وغيرهم. وبالطبع كانت هناك مقدمات للطب عند العرب قبل عصر الترجمة بحيث يمكن أن يكون ازدهار الحركة الطبية عند المسلمين، فى فترة ازدهارها، حلقة فى سلسلة مستمرة ومتقدمة منذ ما قبل الإسلام هذه الحركة الطبية المزدهرة ترجع فى معظمها إلى جملة أسس ومقومات معرفية سابقة عليها، ومن بينها حركة الترجمة وبيت الحكمة البغدادى.

ومن منطلق أن الحضارة الإنسانية تشكل سلسلة مشتركة الحلقات بين الأمم، ومن منطلق قاعدة التواصل العلمى والمعرفى بين الأمم، يأتى هذا الكتاب ليقف على الحركات العلمية الطبية السابقة على حركة الطب العربى، ومدى تأثير الأولى

فى الأخيرة. وبذلك نحاول أن نغطى جانباً مهماً من جوانب تاريخ العلم الخاص بالطب ينبغى على أى باحث فى تاريخ الطب العربى أن يتعرف عليه أولاً، لكى يدلف منه إلى الوقوف على الحجم الحقيقى لإنجازات أطباء الحضارة العربية الإسلامية، هؤلاء الذين أثروا بدورهم فى الحضارة الغربية الحديثة.

وبناء على ذلك، فقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يشتمل الكتاب – بعد هذه المقدمة –على ما يلى من الفصول:

الفصل الأول: طب الحضارة المصرية القديمة، بدأنا فيه بالإشارة إلى ان هرمساً الذى قيل إنه نبى الله ادريس، هو أول من تكلم فى الطب فى مصر القديمة. ثم تعرضنا لابتداء الطب المصرى القديم الفعلى على يد امحوتب وكيف أن المصريين قد رفعوه إلى مصاف الآلهة، فرسموه آلهاً للطب. ثم تعرض البحث لأهم الوثائق الطبية المصرية القديمة المكتوبة على ورق البردى، والتى اسفرت الحفريات عنها فى القرن الماضى، وأهمها بردية ايبر، وبردية ادوين سميث، وبردية هيرست، وبردية شيستر بيتى، وبردية كاهون، وبردية برلين. وغيرها من البرديات التى أوضحت أن المصريين القدماء قطعوا شوطاً كبيراً فى سبيل ازدهار الطب ، وذلك ضمن حضارتهم المعهودة فى فروع العلم المختلفة.

الفصل الثانى: طب الحضارة البابلية، وفيه بدأ البحث بنبذة عن نشأة الحضارة البابلية. ثم تعرض للجانب الطبى منها، مركزاً على قانون حمورابى الذى احتوى على أعظم وثيقة تتعلق بالطب البابلى والتى تتحدث بصورة عامة عن الأطباء الجراحين دون سواهم. وانتهى الفصل إلى أن الأطباء والصيادلة البابليين قد استطاعوا أن يحرزوا تقدماً ملموساً فى الطب والصيدلة، اتفق بصفة عامة مع حضارتهم المعروفة آنذاك.

الفصل الثالث: طب الحضارة الفارسية. وبدأ البحث فيه أيضاً بنبذة يسيرة عن نشأة الحضارة الفارسية. ثم انتقل إلى اهتمام العربى بالطب ابتداءً من عصر ،جمشيذ، الذى أظهر علوم الصناعة الطبية ، وتصرف فى أفانينها، ووقف على

أسرارها الغامضة. وقد وقفنا على المنطلقات الإبستمولوجية التى انطلق منها الطب الفارسى، فوجدنا أن هذا الطب قد تأثر فى معظمه بالطب المصرى القديم، والطب الهندى، والطب اليونانى، فضلاً عن اختلاطه بأعمال الكهنة. إلا أن ذلك لم يجعل الطب الفارسى يخلو من مبادئ علمية جيدة.

الفصل الرابع: طب الحضارة الهندية. وفيه بدأ البحث بتوضيح استفادة الهنود من اسهامات الحضارة البابلية فى الطب والصيدلة. ثم تعرض للإضافات الهندية التى أضافها أطباءهم والتى ميزت طبهم «كطب هندى». وكل ذلك قد جاء فى مصادرهم التاريخية الطبية، وأهمها: كتاب سردا، وكتاب شاراكا واللذان يبينان مدى تفوق أطباء الهنود وتمكنهم من الفن الطبى والعلاجى على أيامهم.

الفصل الخامس: طب الحضارة الصينية. بدأ بنبذة عن بداية وتطور الحضارة الصينية، وكيف أن الصينيين لم يقتبسوا من غيرهم إلا القليل وتمسكوا بمعتقداتهم وفلسفتهم الخاصة. وكان الطب عندهم خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية ، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد ابقراط بزمن طويل. إلى الدرجة التى معها، كثرت وتنوعت العقاقير الطبية، كما أطنب الأطباء وتحذلقوا فى تشخيص الامراض. فقد وصفوا من الحميات مثلا ألف نوع، وميزوا من أنواع النبض أربعا وعشرين حالة... الخ.

الفصل السادس: طب الحضارة اليونانية. بدأ ببيان كيف لعبت الأساطير القديمة دوراً بارزاً فى حياة اليونانيين بشتى مجالاتها. وقد نصبت هذه الأساطير «أبولو» إلهاً للشفاء وطبيباً لالهة جبل الأوليمب. وبعد ان يتناول البحث اسقيليبوس وشعبيته والمدارس الفلسفية التى مست الطب من خلال بحثها العام عن الحقيقية، انتقل إلى بداية التفكير الطبى اليونانى فى مرحلة النضوج، وذلك بالوقوف على ابقراط ومجهوداته العظيمة فى المجال الطبى، وكيف أعتبر من أعظم أطباء العالم فى التاريخ، و«أبى الطب» كما سماه العرب. وقد اتضح من خلال البحث فى هذا الفصل أن ابقراط كان متضلعاً فى العلوم الطبية، فأدخل الطب فى إطار علمى

مستغلاً الفحص الاكلينيكى والاستنتاج المنطقى السليم. واتضح ذلك فى كثير من مؤلفاته، وأهمها: كتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة.. وقد انتهى هذا الفصل بملاحظة مؤداها أنه بعد مضى زمن على أبقراط، اكتفى الأطباء بمحاولة تفسير نصوصه، أما جوهر طريقته وهو الملاحظة الحرة، فقد أصبح شيئاً ثانوياً لا يبالى الأطباء به. فنهضت مدرسة الاسكندرية التجريبية ضد هذا التيار العقلى المتزمت.

الفصل السابع: طب مدرسة الاسكندرية. وهو يقف على ازدهار الطب فى الاسكندرية، بعد فترة الضعف الممتدة من بعد ابقراط إلى عصر البطالمة فى مصر. فقد نشط الطب فى مدرسة الاسكندرية، وكان أشهر من نبغ فيه هيروفيلوس، أول مشتغل بالتشريح العلمى. وارازيستراتوس أول من فرق بين الوقاية والتداوى، وعلق أهمية أعظم على الوقاية، كما أولى الأنسجة والأوعية المحل الأول فى دراسة الأمراض، وشرّح الدماغ والقلب وغير ذلك. وبعد ذلك يتعرض البحث فى هذا الفصل لجالينوس كطبيب عبقرى من أعظم عباقرة البشر، وذلك فى وسط متخبط، وممتد من نهاية فترة فيلوس، وأرازيستراتوس، وحتى القرن الثانى الميلادى.

الفصل الثامن: الطب العربى قبل ظهور الاسلام وفيه أوضحنا أنه إذا كان هناك ما يسمى «بالطب الجاهلى العربى»، فإنه لا يخرج عن بعض المعارف الطبية التى نقلها العرب ممن جاورهم من الشعوب القديمة، لاسيما الهنود، والفرس، والكلدانيين، واليونانيين، بالإضافة إلى ما استنبطوه من تجاربهم البسيطة كأثر من آثار خبرتهم العملية. ولكن ذلك لم يمنع وجود جماعة من الأطباء الطبيعيين قدموا لمرضاهم بعض النصائح السليمة، ووضعوا لعلاجهم طائفة من الأعشاب والنباتات ذات الأهمية المعروفة فى العلاج.

الفصل التاسع: الطب النبوى. وفيه وجدنا أن الممارسات الطبية عند العرب قد تابعت مسيرتها فى العصر الجاهلى عند المسلمين بعد بزوغ شمس النبوة، إلا أنها اتخذت طابعاً إيمانياً ينضح بروح الاسلام ويقيم المرض والصحة

على أساس العناية والقدرة الإلهية.. وقد عرضنا لجملة من الممارسات الطبية والعلاجية التى مارسها رسول الله (ﷺ)، وأمر بها أصحابه. وانتهينا إلى وجوب الاهتمام ببعض الوسائل الطبية والعلاجية التى ظهرت فى عصر الرسول (ﷺ) خاصة وأن الطب الحديث قد أثبت صحتها اليوم. ومنها التطبب ببعض الأعشاب وعسل النحل، واللبن، والحبة السوداء... وغير ذلك خاصة والعالم ينادى اليوم بالعودة إلى العلاج بالمواد والأعشاب الطبيعية. والطب النبوى يقوم فى مجمله على العلاجات الطبيعية.

الفصل العاشر: الطب فى الامبراطورية الأموية، بدأ بنبذة عن امتداد نطاق الدولة الاسلامية فى عصر بنى أمية امتداداً شاسعاً. ثم أوضحنا كيف اهتم الأمويون بالعلم فى ظل الامبراطورية المترامية الأطراف، وبدأوا بنقل العلوم القديمة كالطب والكيمياء والنجوم والعدد.. وغيرها إلى اللغة العربية. وكان الطب فى مقدمة العلوم التى نالت اهتماما أُموياً كبيراً، فبدأ الطب العربى يتأثر بالاتجاه اليونانى على أثر حركة الترجمة. الأمر الذى أدى إلى ظهور ونبوغ عدد كبير من الأطباء، تحدثنا فى هذا الفصل عن أشهرهم، وهم: ابن أثال، وأبو الحكم الدمشقى، وحكم بن أبى الحكم الدمشقى وماسرجويه، وتياذوق، وزينب طبيبة بنى أود.

الفصل الحادى عشر: حركة الترجمة وأثرها فى ازدهار الطب العربى. أهم فصول هذا الكتاب لأن حركة الترجمة والنقل تعد الجسر الحيوى والضرورى الذى عبرت عليه علوم وثقافات الأمم غير العربية إلى العربية. فما أن انطلق العرب شرقاً وغرباً لنشر الدعوة الاسلامية، حتى تكامل مع هذه الإنطلاقة توجه أكيد إلى علوم الحضارات القديمة، فكان أن انطلقت أكبر حركة علمية للترجمة فى العالم الاسلامى. وكان الطب من أوائل العلوم التى عنى المترجمون السريان واليعاقبة والنساطرة واليهود بنقلها إلى اللغة العربية، لأن الخلفاء والأمراء كانوا يطلبونها بإلحاح لعلاجهم وتمريضهم. ثم توالت بعد ذلك ترجمة الكتب غير الطبية، بعد أن شعر المسلمون بأنهم فى حاجة إليها فى ثقافتهم الإسلامية الجديدة.

ومن الطبيعى أن يتناول هذا الفصل حركة الترجمة فقط تمشياً مع موضوع الكتاب. لكننا آثرنا تناول حركة الترجمة فى مجملها. إذ أنها تشكل منظومة معرفية متكاملة لا يحبذ فصل أحد جوانبها عن بقية الجوانب الأخرى.

من كل ما سبق نرى أن جميع فصول هذا الكتاب إنما تشكل البنّية الرئيسية، والإساس المعرفى الذى انطلق منه الطب العربى فى عصر ازدهاره. فكان لابد من تناول تلك الفترات السابقة على الطب العربى من حيث إنها تمثل حلقة مهمة من حلقات سلسلة تاريخ العلم العربى، والعالمى.

والله أسال التوفيق

فمنه العون والسداد

خالد حربى

الفصل الأول
طب الحضارة المصرية القديمة



منذ خمسين قرناً خلت – أومابنوف – بدأت فى وادى النيل طلائع الحضارة الإنسانية الأولى، وكان الانسان قبلها يعيش على البسيطة بعتاد القرون الحجرية حتى استطاع المصريون اكتشاف معدن النحاس واستعماله، فكانوا السابقين فى تشييد أول عصور التحضر الإنسانى، كما كانوا السابقين فى وضع أساس الكثير من العلوم ومنها الطب والكيمياء[1].

وقد أطلق على أرض مصر قديماً اسم «كمت» بمعنى أرض التربة السوداء، ويعتقد أن لفظ الكيمياء مشتق منها، لما أظهره المصريون القدماء من معرفة بها. ومن ذلك نجد أن الملاخيت وهو أحد عناصر كربونات النحاس الخضراء قد استعمل كحلاً للعين منذ عصور بعيدة فيما قبل التاريخ، أى قبل ميلاد السيد المسيح «عليه السلام» بآلاف السنين، ثم استعمل خام الرصاص «الجالينا» لأغراض علاجية فى العصور التى سبقت الأسر الفرعونية الحاكمة.

أما أول من تكلم ونظر فى الطب فى مصر القديمة، فهو هرمس الأول الذى قيل إنه نبى الله إدريس «عليه السلام». يقول ابن النديم[2]: «إن هرمساً استخرج سائر الصنائع والفلسفة، والطب هو مما استخرجه». وقال ابن جلجل[3] نقلاً عن أبى معشر البلخى: «إن هرمساً هو خنوخ بالعبرانية، وادريس بالعربية، وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها، وأول من نظر فى الطب وتكلم فيه». وكان مسكنه صعيد مصر على رأى القفطى[4]، وابن أبى اصيبعة[5].

أما ابتداء الطب الفعلى فى مصر القديمة، فكان على يد امحوتب Imhotep وزير الملك زوسر Zoser أحد ملوك الاسرة الثالثة (2980 -2900 ق.م). وقد بلغ امحوتب هذا شأواً عظيماً لما أبداه من مهارة ليس فى الطب فقط، ولكن فى العمارة، والحكمة الدينية، والسحر، والنطق بالحكم والمواعظ، وليس أدل على ذلك من أن المصريين، بعد مضى مائتين وخمسين عاماً على وفاته قد رفعوه إلى مصاف الالهة، فرسموه الهاً للطب يتقدمون إليه بالقرابين طلباً للشفاء فى معابد شيدت باسمه.

والجدير بالذكر أن اليونانيين قد جعلوا من أحد حكمائهم وهو اسكليبيوس Asklepios شبيهاً بامحوتب في أساطيرهم، وكانوا يطلقون على الأخير اسم أموزيس Amouthes.[6]

وإذا كنا نجهل الكثير من مدى معرفة امحوتب بالطب، إلا أن رفعه إلى مقام الآلهة ينطوي على تقدير المصريين له من حيث إنه أول رجل عظيم ينبغ في الطب لديهم. «وينبغي أن يذكر اولئك الذين يقولون بإن ابقراط أبو الطب، أنه يجيئ في منتصف المسافة الزمنية بين امحوتب وبيننا، وفي ذلك ما يكفي لتعديل منظورهم إلى العلم القديم»[7].

لقد أسفرت الحفريات في القرن الماضي عن اكتشاف بعض الوثائق المكتوبة على ورق البردي، ألقت ضوءاً كبيراً على حالة الطب لدى الفراعنة، وأهمها بردية Ebers التي اكتشفت عام 1872، ويرجع تاريخها إلى عام 1550 ق.م[8] وكذلك البردية التي اكتشفها Edwin smith ونشرت مع ترجمة انجليزية عام 1929، ويرجع تاريخها إلى عام 1600 ق.م[9]. هذا إلى جانب برديات أخرى كثيرة مثل بردية Herst، وبردية Chester Bealty، وبردية كـــاهون، وبردية برلين، وبردية لندن. وقد اتضح من دراسة هذه البرديات ما يلي:

أنشأ المصريون القدماء الكثير من مدارس الطب في عواصم الأقاليم لتلقي وتلقين هذا الفن، واختاروا لهذه المدارس أشخاصاً من الموثوق بعلمهم وبفضلهم، ومن ذوي الحنان والرأفة بالضعفاء. وكانوا يحلقون رؤسهم ويلبسون جلود الفهد على ظهورهم ويتخذون الثياب المنسوجة من الكتان الغليظ كشعار يعرفون به أينما وجدوا. وكانت هذه المدارس تابعة للمعابد، وتخضع لإشراف رجال الدين على الأقل من الناحية الأخلاقية والدينية. وكان من بينهم مدارس منفيس، وعين شمس، وطيبة، وصا الحجر. وكانت هذه المدارس بمثابة جامعات كبرى لتلقي الفنون الطبية بأنواعها، إلى جانب العلوم الأخرى كالهندسة والفلك. ومن قوانينهم – كما يقول هيرودوت – ألا يدخلها من الشبان وغيرهم إلا من يكون كثير الصمت

معروفاً بالثبات، وأجريت له عملية الختان. وأن يحافظ الطلبة على تقاليدهم، وخاصة عدم مخالطة السفهاء لكى لا يعرضهم ذلك إلى النقائص. وإذا ارتكب أحدهم هفوة تمس شهرته الأدبية وكرامة انتسابه إلى هذه المعابد السامية يعاقب أشد عقاب حتى لا يمارس هذه المهنة إلا المتصفون بالفضيلة الصادقة، لأن الأطباء امناء من قِبل الخالق على حياة الناس، ولا ينبغى أن تكن أرواح الناس العوبة فى ايدى أشخاص غير أمناء لم يزينوا علومهم بالإستقامة النفسية[10].

وقد انقسم برنامج التعليم لدى قدماء المصريين إلى نظامين، نظام التعليم الأوّلى وفيه يعطى للمتعلم بدايات العلم حتى سن الرابعة عشر، وتحت اشراف الوالدين. فإذا اجتاز هذه المرحلة بنجاح، ينتقل إلى نظام التعليم العالى، فيلتحق بالمعبد الذى يتلقى فيه التعاليم النظرية والعملية من الاساتذة مباشرة[11].

ومتى أتم الطالب دراسته وأدى الشهادة النهائية فى حفلات كانوا يعتنون بها لذلك تؤدى (أمام الهيكل المقدس وبين يدى الأساتذة وجمهور الرؤساء من الحكام) اليمين القانونية بكتمان أسرار العلوم عن غير أهلها، وأن يؤدى الطبيب مأموريته فى خدمة المجتمع الانسانى بالصدق للجميع وبالرأفة على الفقير. ويبدأ حياته العملية فى هذا المضمار بتضمينه بعض السنين فى وظيفتى الكهانة والطب، ويتفرغ بعدها لعلومه الطبية. ومن المأثور عنهم إعداد عيادات فى المعابد والهياكل لفقراء المرضى ومداواتهم مجاناً. وكان التلامذة لمدارس الكهنوت يتمرنون على الأعمال الجراحية وغيرها ليساعدوا فيها كبار الاساتذة عند كثرة الوافدين إلى هذه المستشفيات. ويختارون للمعابد التى بها هذه المدارس أماكن فيحاء، ويقيمون حولها البساتين والحدائق الحاوية لكثير من النباتات الصالحة لتحضير العقاقير والمركبات العلاجية منها فى معاملها الفنية المخصصة لهذه التجهيزات حسب القواعد العلمية[12].

وكانوا يعتنون بالآلات الجراحية بأنواعها، ولا يستبعد أن يكون ما اكتشف منها فى مدينتى منفيس وطيبة من آثار تلك المستشفيات. وكان لكل مستشفى

مكتبة خاصة بكل ما يستطاع ايجاده من الفنون العامة، وأخصها ما يتعلق بالطب ليستعين بها كبار الأساتذة فى حل المسائل الغامضة التى تمر عليهم وقت العمل. وبعد المراجعة وتمحيص البحث يدون المكلف به حقيقة ما استنتجه فى كل حادثة على حدتها ليكون ذلك بمثابة ملاحق تكميلية يرجع إليها أيضاً فى مثل هذه الأحوال. وهكذا كان كل جيل يؤدى فى أدواره خدمة علمية جليلة لفائدة بنى الانسان فى الأجيال القادمة[2]. وكان نتاج ذلك ما يلى:

تطالعنا بردية ايبرز بوصف اكلينيكى بديع لبعض الأمراض مثل، وصف لحالات الغدد الدرنية، والزائدة الدودية، وأكياس الشرايين، وخراج الرئة، وآلام القلب Angina pectaris، والإنسداد المعوى. وهاك وصف الحالة الأخيرة: «إذا قمت بفحص رجل يشكو من مغص فى بطنه، وكان بطنا صلباً يابساً من التهاب أو قيح فيها لا يجد طريقا يخرج منه، فانه سيتدفق فى بطنه وسيحدث له التواء فى امعائه». وليس ما يعرفه طب اليوم أكثر من ذلك. يقول الدكتور الخردلى عن هذا الوصف: «لو أردت أن أُعيد كتابة هذه الحالة، لما احتجت إلا لتغيير فى ترتيب بعض الجمل، فنحن نقول اليوم إن بعض حالات الانسداد المعوى تتسبب من التواء فى الامعاء، وأن من علاماته أن البطن يصبح مشدوداً يابساً، وأن لا شئ يخرج منها لا ريح ولا غائط، وأنها لو تركت بدون علاج لتعفنت أمعاؤه - أو كما نقول الآن تغنغرت - وأنه قد ينتج عن ذلك قيح فى بطنه»[13].

وتتحدث بردية إيبرز أيضاً عن الأمراض الباطنية بأنواعها، وأمراض العيون، والأمراض الجلدية، وأمراض الأطراف، ومتنوعات تشمل أمراض الرأس بما فيه من اللسان والاسنان، والانف، والأذن. وأمراض النساء، والمساحيق، وبعض المعلومات التى تصطبغ بالصبغة التشريحية والفيزيولوجية[14].

وقد عرف قدماء المصريين من أمراض العيون: الرمد الحبيبى والالتهابات الرمدية، والماء الازرق Glaucoms، وقوس الشيخوخة Arcussenolis . «وكان للمصريين اعتقاد فى تأثير العين وحسدها، ولذلك كانوا يخافون شر تأثيرها،

واتخذوا لذلك التمائم والطلاسم وجعلوا لها كتاباً مخصوصاً... ولما كان أمر هذه الرقى والمحافظة من شر العين وإبعاد تأثيرها من الأشياء المحبوبة عندهم، سموا نسائهم «استاواريان» بمعنى مبعدة العين الرديئة.. وكانوا يعتنون كثيراً بعيونهم، ويعالجونها بعقاقير بلادهم، وبعقاقير يستجلبونها من البلاد الأجنبية»[15].

ومما تجدر الاشارة إليه ان التمائم والطلاسم لم تكن خاصة بالعين فقط، بل كانوا يبتدوءن بها قبل علاج أى مرض. وكان هذا الأمر – أى ترتيل العزائم والرقى – من صميم أعمال الكهنة دون غيرهم. ومن أمثلة ذلك ما جاء فى بردية إيبر Eber «لقد أتيت من مدينة الشمس ومعى شيوخ المعبد المالكون للشفاء والواهبون للأبدية، أتيت من «سايص» فى ركاب الأم المنجبة للالهة الذين منحونى حماهم. أتيت وفى حقيبتى وصفات من الأله الأكبر تشفى من كل دائم عضال أرادته الآلهة أو الآلهات وتقى من سوء سببته أرواح الموتى»[16].

وقد ذاعت شهرة قدماء المصريين فى طب العيون لدى جميع الممالك. وقد ذكر هيرودوت أن سورش ملك الفرس احتاج فى وقت من الأوقات إلى أطباء مهرة لعلاج عينيه، فلم يجد فى مملكته، ولا فيما يجاورها من يثق بهم، فانتدب طبيباً خاصاً من مصر. وبعد أن تم له الشفاء على يديه كلفه أن يعلم فنه لآطباء بلاده فأجابه إلى ذلك. والمصريون القدماء هم أول من سمى مرض الكاتاراكت «صعود الماء إلى العين»، وسماه اليونان والرومان من بعدهم «الماء الأبيض»، وهى التسمية التى تطلق حتى الآن على هذا المرض، وسبب ذلك أن المصاب ينظر وكأن ماء يحول بينه وبين رؤية الأشياء. وقد ذكر الفيلسوف الرواقى كريسب الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد أن المصريين كانوا يقومون بإجراء عملية المياه البيضاء فى العين (الكاتاراكت) كعملية بسيطة تمارس باستمرار. وقد اكمل الجراح اليونانى الشهير أنتيل فى القرن الثانى بعد الميلاد مزاولة هذه العملية على أرض مصر، وفى الاسكندرية. وعلى ذلك ليس أنتيل هو أول من ابتكر عملية الكاتاراكت فى العالم كما كان يُظن، بل قدماء المصريين هم أصحاب الفضل فيها[17].

وقد عرف المصريون القدماء كذلك، الكثير من أمراض النساء، فقد جاء فى بردية «كاهون» سبع عشرة علامة لتمييز العقيمات من النساء، وللتنبؤ والتكهن بجنس الجنين ذكراً كان أم أنثى. ومن أمثلة ذلك: أن يجيئ بالنساء اللاتى يردن معرفة خصبهن من عدمه، فيجلسن على بقايا جعة، فإذا تقيئت السيدة كان ذلك دلالة على خصبها، ويرجع عدد الأولاد إلى عدد مرات القيئ، أما عدم التقيئ فكان دليلاً على أن السيدة عقيمة. وقد أوحت هذه الطريقة بوصفة أخرى تتلخص فى وضع لبوس من الثوم فى مهبل المرأة، فإن كانت خصبة، أدركت طعم الثوم فى فمها.

ومن هذا يبدو أن جميع الإشارات الخاصة بمعرفة العقم كانت مبنية على نظرية مؤداها، ان هناك إتصالاً بين المهبل، وبين جميع أجزاء الجسم فى حالة الخصب أو الحمل. يقول بول غليونجي: إن الاغريق قد استعملوا هذه الطريقة. ووضعها أبقراط فى كتاب الفصول، وليس ثمة شك فى أنه اقتبسها منهم (أى من المصريين). وفى ذلك دليل واضح على تأثر الطب اليونانى بالطب المصرى القديم. كما توراث العرب هذه الطريقة، ثم الفرنج من بعدهم حتى استعملت فى أوربا فى القرون الوسطى. وقد أثبت الطب الحديث صحة هذه الطريقة، حيث وجد أحد الباحثين العرب[18] بعد حقن الرحم بمادة «الليبيودول» أن الخصبات من النساء يجدن طعم الثوم فى فمهن وذلك «نتيجة لانتقال اليود الموجود فى الليبيودول من الرحم إلى التجويف البريتونى، ومنه إلى الرئة إذا كان البوقان سالكين»[19].

ولقد برع أطباء مصر فى تشخيص وعلاج الإمراض إلى الدرجة التى يمكن أن نرى معها التخصص الدقيق المتبع فى الطب الحديث، يقول هيرودوت «الطب يمارس فى مصر على طريقة الاختصاص، فالطبيب هنالك يعالج مرضاً واحداً، لا جملة أمراض، والبلاد تعج بالأطباء فبعضهم لأمراض العيون، وبعضهم لأمراض الرأس، وبعضهم للأسنان، وبعضهم للأمراض المجهولة التى ليس لها مكان معين»[20]. ومن أمثلة ذلك ما جاء فى بردية إيبر (حالة 856) «أن هناك وعاءين فى عنق الانسان، فإذا مرض بعنقه، أو ضعف بصره، فقل عندئذ إن أوعية عنقه

قد أصابها المرض»[21]. والحالة رقم (191) من نفس البردية تتحدث عن الذبحة الصدرية فتقول «إذا فحصت إنساناً مصاباً بضيق فى فهم معدته، وتعتريه آلام فى ذراعه، وفى صدره، وفى جانب فم معدته، ويقال عنه مرض (واز) الذى يهدد بالموت.. حضر له أعشاباً منبهة.. ثم ضع يدك مبسوطة عليه، حتى تشفى ذراعاه ويزول عنه الألم»[22]. كما أن نظرة طبية لفك سفلى عُثر عليه فى مقبرة من الأسرة الرابعة (2900 - 2750 ق.م) لتوضح مدى مهارة أحد أطباء الاسنان الذى أجرى عملية جراحية لفتح خراج تحت أحد الضروس[23].

وقد ذكر هيرودوت أنه كان يوجد بمصر القديمة اخصائيون للأسنان، وكانوا على درجات مختلفة، منهم الطبيب العادى منقورع عنخ، ونفريوتيس، ومنهم رئيس الاخصائيين مثل حيز يرع، وبسامتيك سنت. وبالرغم من أن التسوس كان نادراً، فان «البيوريا» والخراجات كانت منتشرة، وقد زاد انتشارها بتقدم الحضارة والترف. وقد وجد اليوت سميث فى جمجمة امينوفيس الثالث غشاء من الطرامة حول أسنانه وفراجين تحتها. ومن أسماء أمراض الأسنان عندهم «آكل الدم» الذى فسره ابيل بالاسقربوط، وغيره بالبيوريا. وكانت الخراجات تصرف بواسطة تريانة صغيرة فى عظم الفك. ومما يدل على قدرة قدماء المصريين الفائقة فى طب الاسنان ما ظهر من جمال الأسنان فى الموميات التى تركوها. وقد عثر يونكر Junker على سنتين مربوطتين سوياً بسلك ذهبى دقيق مما يدل على أن الطبيب المصرى القديم قد أدرك بذلك احكام ربط سنة غير ثابتة فى سنة أخرى ثابتة بجوارها. والأعجب من ذلك هو ما عثر عليه برلاند Purland الذى وجد سنة صناعية فى مومياء محملة على قاعدة خشبية صغيرة فوق جذر سنة موجودة فى مكانها. وعثر بلزونى Belzoni أيضا على أسنان كثيرة من هذا القبيل مثبتة بأسلاك ذهبية. وإذن فمصر قد ابتكرت فن تركيب الاسنان الصناعية بدلاً من الاسنان الطبيعية التى فسدت أو سقطت. ومما يدل على عظمة قدماء المصريين فى هذا المضمار أنه فى الوقت الذى برعت فيه مصر فى تركيب الاسنان واصلاحها، كان أطباء اليونان لا يعرفون إلا خلع الاسنان فقط[24].

ومما هو مثير للدهشة أيضاً ما جاء فى بردية إيبرز من ذكر لاحدى الوصفات الخاصة بحشو الأسنان المسوسة بخليط من كربونات النحاس، والصمغ، إلى جانب بعض المواد الإضافية الأخرى، والتى لا تكاد تخرج عما هو مستخدم فى الطب الحديث لحشو الاسنان من استخدام مادة تسمى املغم Amalgam تتكون من فضة Silver، نحاس Brass، زئبق Mercury وذلك بنسب مختلفة. ناهيك عن شد الاسنان بإسلاك من الذهب والفضة.

وقد بلغ المصريون شأوا كبيراً فى الجراحة، فبردية ادوين سميث قد حوت كثيراً من اصول الجراحة، وبالأخص جراحة العظام والاجزاء السطحية، شارحة كل حالة بغاية من الدقة والنظام. وقد روعى فى كتابتها أن تبدأ بذكر اسم الدواء إذا وجد، وإلا فيكتفى بذكر الأعراض، ثم تأتى بعد ذلك طريقة فحص هذا الداء، ثم يليها التشخيص، ثم العلاج، ثم الانذار لكل داء، وهذا هو نفس الاسلوب الذى يدرس الآن فى كليات الطب الحديثة فى العالم أجمع عند دراسة أى مرض[25].

أما التشريح، فقد عرفه قدماء المصريين بناء على ما اكتسبوه من تجاربهم فى التحنيط[26] ذلك الذى بلغوا فيه شأناً عظيماً، وكان دليلاً على براعتهم فى الكيمياء. «ويحتمل أن يكون فن التحنيط قد سهل على العلماء اليونانيين فى عصر متأخر، بل متأخر، أى أيام البطالمة أن يمارسوا تشريحاً مبنياً على قواعد ثابتة»[27]. فقد قيل إن جالينوس هو أول طبيب لم يكتف بدقة الوصف المحلى للإصابة، بل ربطها بظواهر ملازمة لها فى أماكن مختلفة من الجسم، وهو بهذا قد حقق تقدماً فى التفكير الطبى.

إلا أن هذا التقدم يُعزى إلى صاحب بردية سميث «كتاب الطب السرى» الذى يحتمل أن يكون «إمحوتب» على رأى بريستد[28]. ومن أمثلة المتلازمات التى قال بها، الشلل والتبول اللإرادى، والاستمناء، فانها - كما يذكر - تكون مصاحبة لإصابة العمود الفقرى. وكذلك الربط بين الشلل النصفى وإصابة ناحية المخ[29].

يتضح إذن أن المؤلف الذى سجلت بردية سميث معلوماته فكر وتأمل فى

مسائل تشريحية وفسيولوجية، كما أنه أدرك أهمية النبض والصلة بينه وبين القلب، فضلاً عن ادراك عام للقلب، يدلنا على ذلك ملحوظاته المدهشة فى المخ إذ يقول: «إذا فحصت إنساناً مصاباً بجرح مفتوح فى رأسه متوغل فى العظم، ومهشم لجمجمته، وفاتح المخ فى جمجمته، فعليك أن تجس جرحه. فإذا وجدت أن ذلك الكسر فى جمجمته شبيه بتلك التموجات التى تتكون فى سطح النحاس المنصهر وتحس شيئاً يخفق ويضطرب تحت أصابعك مثل الجزء اللين فى مقدم رأس الطفل قبل أن تكتمل عظامه. وإذا لم يحدث خفقان أو اضطراب تحت أصابعك، ينفتح المخ فى جمجمته (المريض) ويفرز دماً من فتحتى أنفه ويقاس من تصلب عنقه[30].

«إذا قمت بالكشف على رجل عنده خلع فى فقرة رقبته ووجدته لا يحس بذراعه وساقيه، وذكره منتصب يسيل البول دون أن يشعر، فان خلعاً فى فقرة رقبته هو الذى تسبب فى أنه لا يشعر بذراعيه وساقيه، أما إذا كان الخلع فى الفقرة الوسطى من العنق، انساب المنى من ذكره»[31].

أما عن النصائح الطبية التى وردت فى هذه البرديات، فانها تتخذ صيغة تعليمات من الاستاذ للتلميذ: إذا فحصت رجلاً مصاباً بكذا. فاعمل كذا وكذا.. يجب أن تأخذ بأحد هذه الأحكام الثلاثة فى تشخيصك للمرض:

1- مرض سأعالجه. 2- مرض سأكافحه. 3- مرض لا يعالج .. إلى غير ذلك من النصائح والإرشادات والتعليمات.

وقبل أن نتحدث عن الطب العلاجى المصرى القديم، ينبغى علينا أن نشير إلى مسألة فى غاية الأهمية عند المصريين القدماء، ألا وهى: الطب «الشرعى»!

فقياماً بالواجب أمام العدالة والتاريخ العام جعلوا فى أنظمتهم القانونية ما يسمى (بالطب الشرعى). فهذا العنوان فى الموضوع القضائى ليس من ابتكارات العصر الحاضر، بل هو مما سبقت إليه مدنية قدماء المصريين فى عصورهم الغابرة. ولا غرابة فى ذلك لأن يقظة الأذهان فى كل جيل تستدعى هذا

الاحتياط. وكان الطب الشرعى عندهم ينحصر فى الكشف أولاً على الوفيات العامة، أى توقيع الكشف على الموتى بمعرفة أطباء يعينون لهذه المهنة للتأكد من أسباب الوفاة. فان كانت طبيعية أو بأمراض أو عارضة لحوادث ليس فيها إجرام، أمكنهم التصريح بالدفن، وإلا عرضوا الأمر للسيطرة القضائية لتفحص الوقائع وتتخذ نحوها التحريات لحصر الشبهة فى من تقع عليه مسئوليتها، فيجرى عليها الكشف الطبى ثانياً. وكان لا يؤدى وظيفة الطبيب الشرعى فى كل مركز إلا من تتوفر فيهم سعة الكفاءة والخبرة التامة والأمانة والحرص على العدالة والاشتهار بالاستقامة والنزاهة. وكان من عادتهم إذا وجدت فى ظروف الجنايات نساء حوامل أن لا يتسرع القضاء فى تنفيذ العقاب، بل يؤجل حتى تضع الحبلى جنينها، وشتان بين عواطف الانسانية هذه والقانون الحالى الذى لا يراعى فى أمر الحبالى شيئاً إلا بما يختص بعقوبة الاعدام فقط، فيؤجل تنفيذه عليها إلى ما بعد وضعها، فإذا كانت العقوبة حبساً، فتنفذ نحوها اجراءاته، وغاية ما فى الأمر أن تبذل نحوها عناية مؤقتة فى اسبوع الوضع فقط. ومن هنا تكون العدالة فى العصور الأولى قد روعيت فيها ظروف الشفقة نحو الحوامل بوجه عام بما لا وجود له فى قانوننا الحاضر الذى يترنم ذووه بأنه وضع فى عصر المدنية الراقية والتنوير المتزايد[32].

أما الطب العلاجى المصرى القديم، فقد اعتمد فى جزء كبير منه على العلاج بالنباتات والأعشاب الطبية، يدلنا على ذلك أيضاً ما كشفت عنه البرديات والرسوم التى وجدت فى المقابر.

وقد استطاعت إحدى الباحثات الغربيات من أن تسجل أكثر من مائة عشب ونبات استعملها المصريون فى العلاج[33]، وضمنها ديسقوريدس اليونانى فى موسوعته النباتية الشهيرة. ومنها: الشوح، السنط (الصمغ العربى)، الوج، البصل، الكرات الرومى، الثوم، الخطمية، الشبت، البقدونس، الكرفس، القنب، العنبر، الخروب، الحمص، القرفة، اللبلاب، الكزبرة، الكمون، الحناء، الدوم، الخس، النعناع، الريحان، الخشخاش، اليانسون، اللوز، الرمان، الفجل، الخروع، التفاح، زهرة اللوتس، الزعفران، شوكة اليهود... إلى غير ذلك من النباتات والاعشاب

التى استخرج المصريون القدماء من اصولها عقاقير للتداوى والعلاج.

أما العقاقير التى استخرجوها من أصل حيوانى، فمنها: الشمع، الكبد، القرون، الجراد، غدد الثور ومنفحته ومرارته. كما صنعوا مساحيق من لحوم الديدان، وبعض الحيوانات الأليفة، واستحضروا بعض عقاقير من بعض المواد العضوية كاللعاب والبراز، والمادة الصفراوية.

والعقاقير التى من أصل معدنى، منها: الجير المطفئ، والحجر الجيرى، وصدأ الحديد، والطباشير، والجبس، والنطرون، وكربونات الصوديون، وكبريتات النحاس... وغيرها كثير.

وكل ذلك إن دل على شئ، فإنما يدل على أن المصريين القدماء كانوا ذا باع طويل فى حقل الصيدلة، حيث أنهم أولوا عناية خاصة بدراسة النباتات الطبية من حيث وقت زرعها وقطفها وكيفية تحضير العقاقير منها. كما ألحقوا مخازن الأدوية بمعابدهم، مما جعل لهذا الحقل أهمية دينية عندهم. وكانت لهم مدارس خاصة تسمى بيرعنخ أى (بيوت الحياة) ملحقة بالمعابد لتدريس العلوم والنباتات الطبية والعقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية وكيفية استخلاصها وفوائدها فى علاج الأمراض، وكيفية تحضير الأدوية منها وتجهيزها فى أشكال صيدلية مختلفة للاستعمال من الباطن ومن الظاهر مما يدل على أنهم كانوا على معرفة بينة بتركيب الأدوية. وقد ورد فى البرديات الطبية أنهم كانوا يجهزون الأدوية على هيئة أمزجة سائلة[34].

مما سبق يتضح للدارس المتفحص للبرديات المصرية الطبية، انهم قد برعوا فى فن الطب وقطعوا فيه شوطا كبيرا[35]. ومن المثير للعجب ان أسلوب العرض فى هذه البرديات، ولا سيما بردية Smith لا يختلف كثيراً عما هو متبع الآن فى الطب الحديث، إذ يبتدأ الكاتب بوصف أعراض المرض والعلامات الدالة عليه أولاً، ثم يثنى بتشخيصه، ويختتم بوضع العلاج المناسب. والبردية مكونة من ثلاثة أقسام أهمها وأطولها، هو ذلك الجزء الخاص بالجروح، والذى قال عنه

بريستد Breasted: إنه قد أحدث بدون شك ضجة كبيرة فى العالم الطبى عند ظهوره. وقال عنه بول غليونجى: إنه قد أحدث ضجة كبرى بين طلبة تاريخ الطب عندما ترجم ونشر(36).

وخلاصة القول: إن البرديات الطبية المصرية القديمة التى عثر عليها - ولا سيما برديتا سميث وإيبرز - قد أوضحت مدى الشوط الذى قطعه قدماء المصريين فى تقدم علم الطب. ولقد أتضح من هذا العرض المركز كيف بلغ قدماء المصريين مركزاً مرموقاً فيه، وكيف أنهم عمدوا إلى التجريب العلمى الصحيح فى كل فروعه، ولا سيما مجال طب المخ والاعصاب. ويبدو من النصائح التى اشاروا إليها على لسان كبار أطباءهم انه كانت هناك مدارس تعليمية للطب فى مصر القديمة كانت هى السبب فى إزدهار هذا الفن فى العصر القديم.

يقول ايبل العلامة فى الطب المصرى القديم: «وعلى ذلك نرى أن طب الأغريق لم يكن مستحدثاً، بل اقتبس كثيراً من الطب المصرى حتى أنه يمكن اعتباره امداداً له، فلو أن أقدم بردية طبية كتبت حوالى 1900 قبل الميلاد، فان الدرجة التى بلغتها تدل على تطور طويل المدى يرجع على الأقل إلى 3000 عام ق.م مما يجعلنا نجزم أن الطب قد نبع من وادى النيل، ومن ثم يجب أن نعتبر أن مصر لا اليونان هى منبت الطب»(37).

وعلى ذلك يمكن القول إن المصريين القدماء قد تمكنوا من وضع نظرية علمية طبية، استفاد منها أطباء اليونان فى بناء حضارتهم. وقد أثر هؤلاء اليونانيون بدورهم فى أطباء العرب والمسلمين على ما سنرى.

هوامش ومراجع الفصل الأول

(1) د. التيجانى الماحى، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، ط الأولى، مطبعة مصر بالخرطوم 1959، ص7.

(2) ابن النديم، الفهرست، طبعة القاهرة 1348هـ، ص 22 .

(3) ابن خُلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة 1955، ص17 .

(4) القفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص23 .

(5) ابن أبى أُصيبعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار الحياة، بيروت (د.ت)، ص

(6) راجع، االتيجانى الماحى، المرجع السابق، ص8.

(7) چورچ سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر 1957 ، جـ1 ، ص111 .

(8) Dr Maher Aly: Medical School Traditions in Ancient Egypt. Alexandria 2000, p. 10.

(9) كانت هذه السنة من فترات الفوضى فى التاريخ الفرعونى، حيث لم يعتل فيها أسر حاكمة، ودامت حوالى 208 سنة بعد انتهاء حكم الأسرة الثانية عشر فى الدولة الوسطى (- 1580 1788 ق.م).

(10) د. نجيب رياض، الطب المصرى القديم، سلسلة الألف كتاب (277)، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة (د. ت) ،، ص 41.

(11) Dr Maher. Aly. op. cit. p. 11- 12.

(13) د. يوليوس جبار، د. لويس ريتر، الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة، ترجمة انطون زكرى، طبعة القاهرة (د.ت)، ص 16 - 17 .

(2) نفس المرجع، ص 17 .

(13) نجيب رياض، مرجع سابق، ص 23 .

(14) چورج سارتون، مرجع سابق، ص114 .

(15) العيون وعلاجها عند قدماء المصريين، نقلا عن قراطيسهم، ترجمة أحمد بك كمال، مخطوط دار الكتب المصرية، عن التجانى الماحى، مرجع سابق، ص12 .

(16) المرجع السابق، ص15 .

(17) راجع، بول غليونجي، الطب عند قدماء المصريين، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت (د.ت)، ص 64 .

(18) الدكتور أحمد عمار.

(19) بول غيلونجى، المرجع السابق ص 64 .

(20) G. Rowlinson: The history of Herodotus. vol 2. p. 136.

عن التيجانى الماحى، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، م.س، ص8 .

(21) د. حسن كمال، الطب المصرى القديم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ط الثانية 1964، ص156 .

(22) نفس المرجع ص 256 .

(23) جورج سارتون، مرجع سابق، ص133 .

(24) راجع، نجيب رياض، مرجع سابق، ص 125 .

(25) نجيب رياض، مرجع سابق، ص 75 .

(26) كان لهذه العملية فريق عمل خاص من الكهنة، يبدءون عملهم بإدخال قطبان حديدية خاصة ملتوية كالسنارة داخل الأنف لاستخراج ما يستطيعون اخراجه من محتويات مخ الانسان، ثم يصبون عقاقير خاصة داخل الجمجمة لاذابة ما تبقى من المخ، ثم يشقون البطن بسكاكين حادة من الصوان، فيخرجون أحشائها ما عدا الكليتين والقلب، ثم يغسلونها بالخمر والسوائل المعطرة، ثم يحشوها بالمر والقثاء الهندى والتوابل، ثم يخيطونها ويغمسوها

فى النطرون الجاف لمدة سبعين يوماً وبعد ذلك تغسل وتلف جيداً بالكتان والصمغ، ثم توضع الجثة فى تابوت خشبى فى نفس حجم الجسم، كما تودع أحشاء البطن فى أوعية أربعة خاصة بجوار الجثة، وذلك بعد حشوها بالبصل والمر، والانيسون، وتنظيفها بالعقاقير. وفى حالات نادرة كانت تعاد إلى البطن.

(27) جورج سارتون، مرجع سابق، ص119 .

(28) James. Henry. Breasted. The Edwinsmith surgical papyrus. 2 vols. Chicago. 1930. vol. 1. p. 30.

(29) بول غيلونجى، مرجع سابق، ص 75 .

(30) جورج سارتون، مرجع سابق، ص 120 .

(31) نجيب رياض، مرجع سابق، ص 82 - 83 .

(32) راجع، يوليوس جبار، لويس ريتر، مرجع سابق، ص 94 - 96.

(33) ليز مانكه، التداوى بالاعشاب فى مصر القديمة، ترجمة د. أحمد زهير أمين، مراجعة د. محمود ماهر طه، مكتبة مدبولى، القاهرة 1993 .

(34) راجع، د. على عبد الدفاع، اسهام العرب والمسلمين فى الصيدلة، الطبعة الثالثة، مؤسسة، بيروت 1407هـ - 1987م، ص 78 .

(35) Breasted. James Henry: Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. New York 1912. p. 91.

(36) بول غيلونجى، مرجع سابق، ص 79 .

(37) نقلا عن نجيب رياض، مرجع سابق، ص 12 .



ملحـــق





شكل (1)

امحوتب الذى اعتبر إلها للطب عند قدماء المصريين

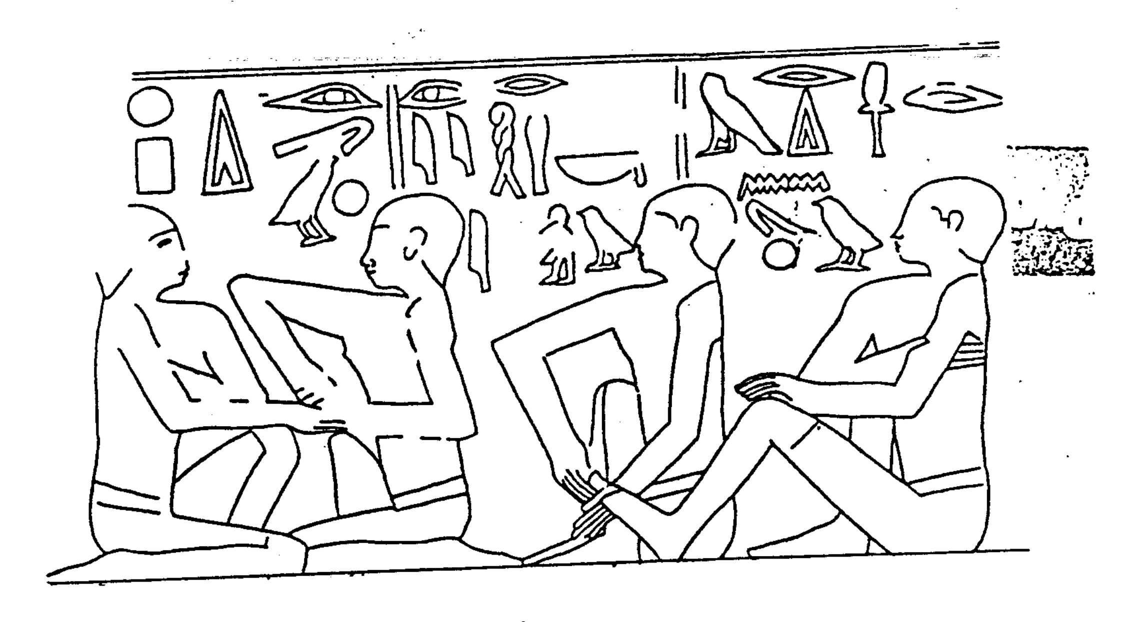
«تمثال من البرونز محفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة»



شكل (2)

رئيس الأطباء نى عنخ رع

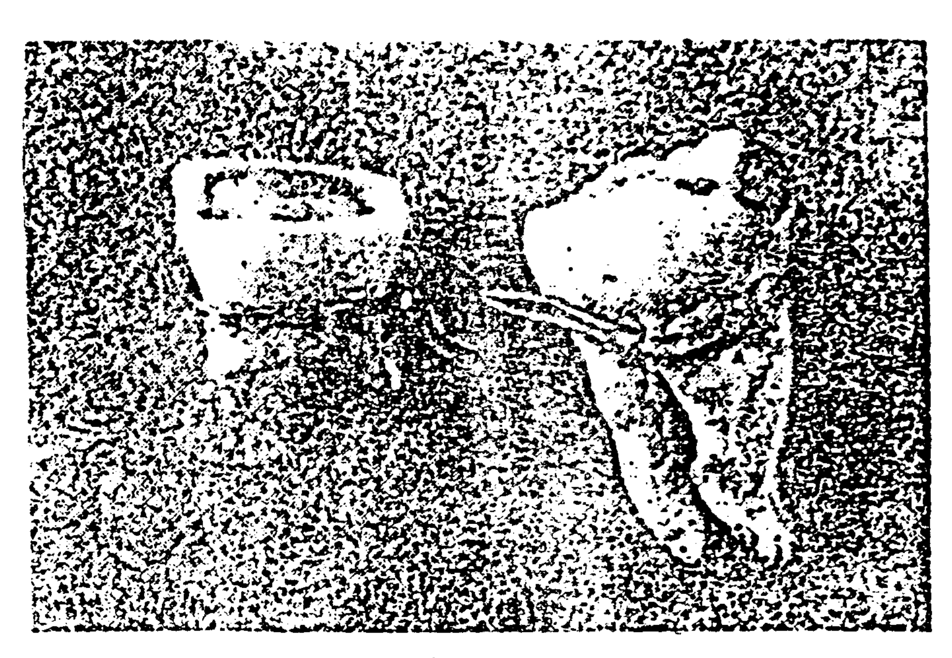
«المتحف المصرى بالقاهرة»



شكل (3)

علاج طبيعى، تحريكات وتدليكات طبية

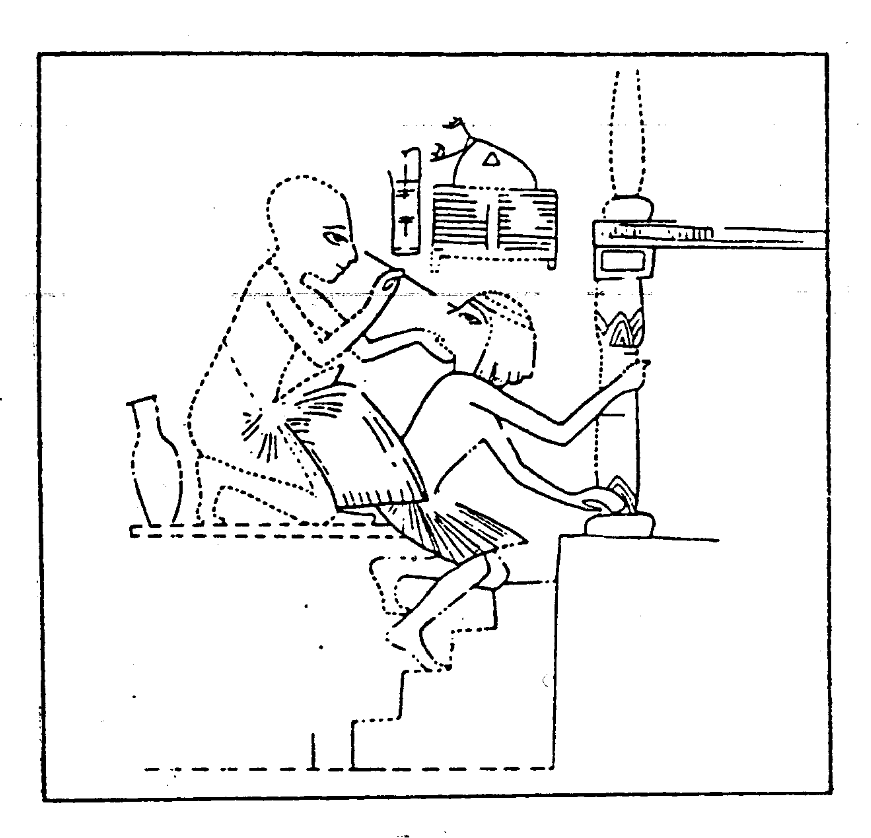
(مقبرة عنخ - ما - حور)



شكل (4)

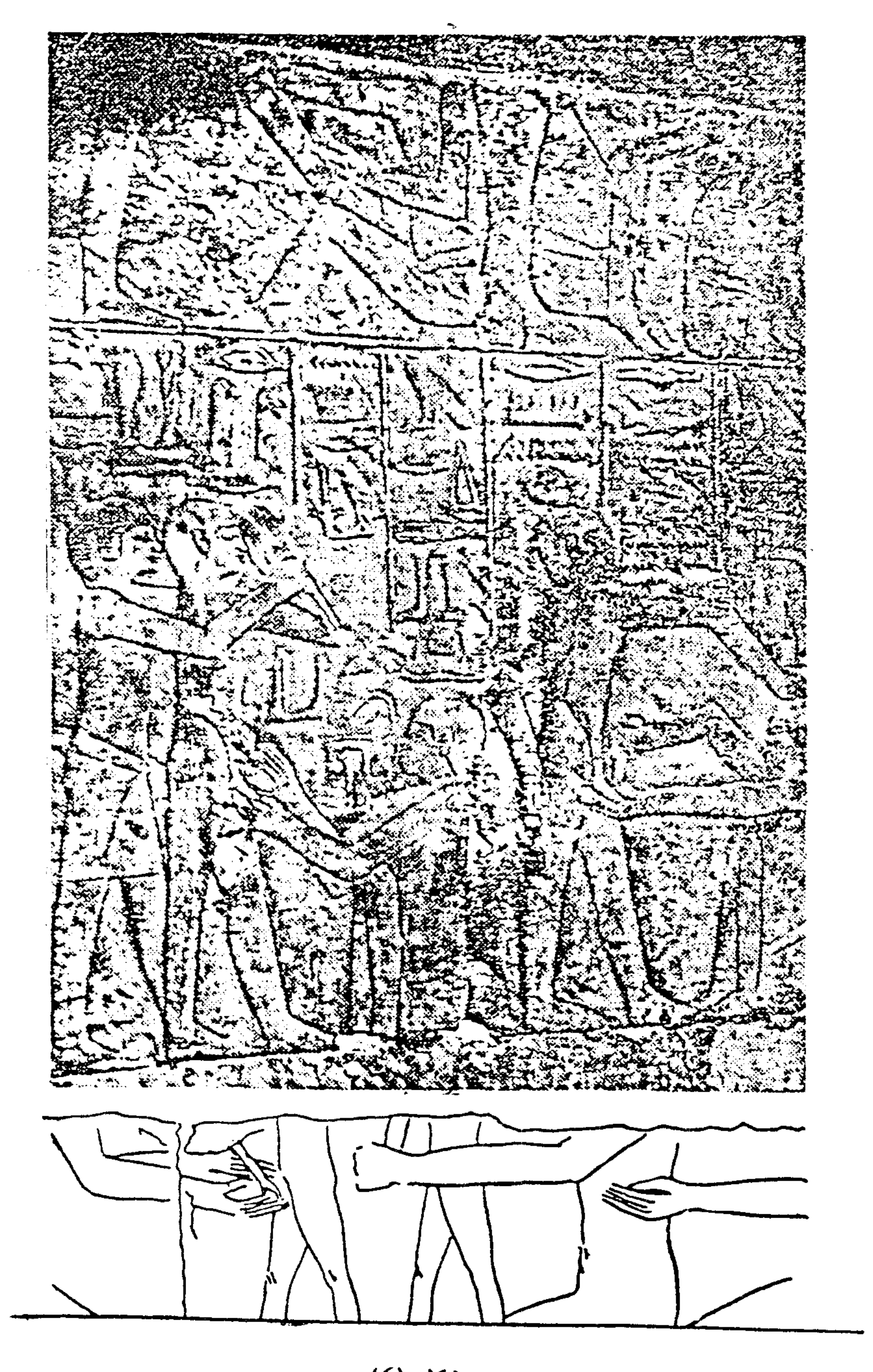
سنان مربوطتان بسلك من الذهب

(متحف هلسام بألمانيا الغربية)



شكل (5)

تقطير العينين (مقبرة ايبوى)



شكل (6)

عملية الختان أول عملية جراحية فى العالم

(مقبرة عنخ ماخور)



شكل (7)

أقدم سجل فى العالم لحالة شلل الاطفال

(كوبنهاجن – الدنمارك)



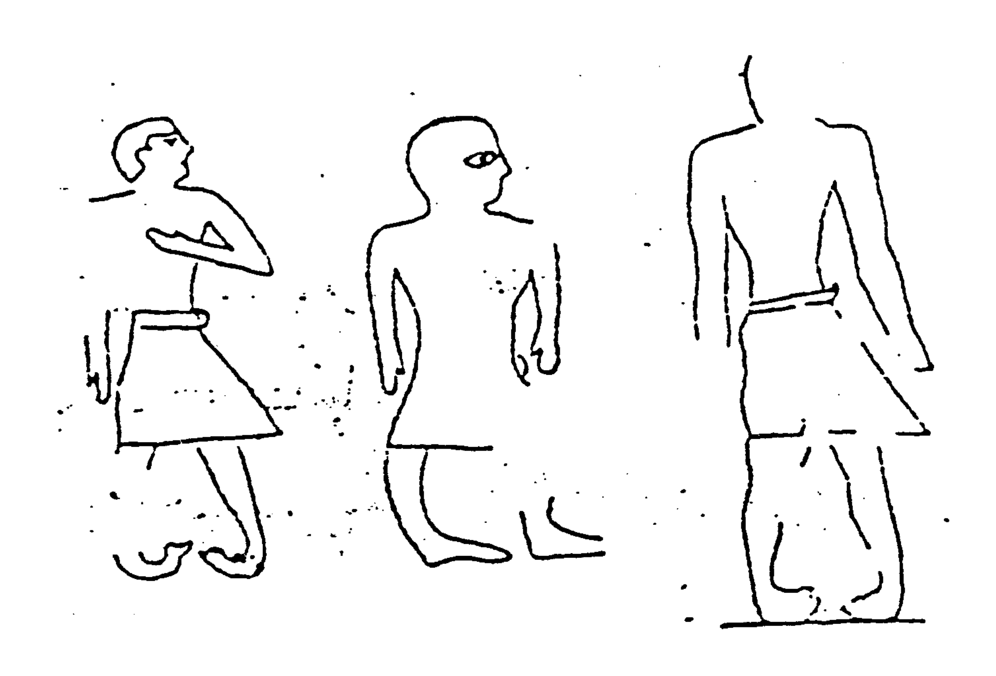
شكل (8)

مومياء الملك رعمسيس الثالث (الأسرة 20)

محفوظة بالطبقة العليا بالطرقة K رقم 3869 المتحف المصرى

شكل (9)

عملية التحليط



شكل (10)

رسوم منقوشة فى مقابر بنى حسن تمثل ثلاث أشخاص مصابين بالكسح،

ويرجع تاريخها إلى سنة 2300 ق.م

الفصل الثانى

طب الحضارة البابلية



نشأت حضارة ما بين النهرين فى وادى الرافدين دجلة والفرات (العراق حاليا) ، وكانت معاصرة لحضارة المصريين القدماء إبان ازدهارها على ضفاف النيل، فقد أسسها السومريون الذين قدموا من المناطق الباردة فى مرتفعات إيران والقوقاز والأناضول، ثم حلوا حوالى عام 3000 ق.م بالقرب من مصبى دجلة والفرات؛ وينتمى السومريون إلى العنصر «الآرى» أو «الهندى الأوربى»، ولكن مملكتهم التى امتدت من البحر الأدنى (الخليج العربى) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط) لم تدم طويلاً، فعندما تكاثر عدد الساميين، المهاجرين من بلاد أمورّو (سوريا) طمعوا فى السيطرة على سهول الرافدين واستولوا فى عام 2750 ق.م على مملكة السومريين، وشيدوا عاصمة لدولتهم سموها «أكاد» ولذلك عرفوا باسم «الأكاديين»، وانتقلت السيطرة بعد ذلك إلى البابليين الذين اتخذوا من «بابل» عاصمة لهم وبلغت حضارتهم أوج ازدهارها فى عهد حمورابى الذى أحسن تنظيم دولته[1].

وقد احتوى قانون حمورابى على أعظم وثيقة تتعلق بالطب البابلى، حيث يتحدث هذا القانون بصورة عامة عن الأطباء الجراحين دون سواهم، وقد ركز على مهنة طب الجراحين بصورة خاصة تبعاً لأهميتها وعلاقتها بحياة أو موت الإنسان اعتماداً على المعتقدات الدينية السائدة فى تلك الفترة[2].

وهاك بعض مواد قانون حمورابى التى تعد أقدم قوانين طبية فى الوجود[3]:

المادة 215 – : إذا أجرى جراح عملية كبيرة لنبيل من النبلاء بمبضع من البرونز، .أنقذ حياة النبيل، أو إذا فتح محجر عين نبيل من النبلاء بمبضع من البرونز، وأنقذ عين النبيل، فيأخذ عشرة «شقيلات» من الفضة أجرة له.

المادة 216 – : وإذا كان المريض من الطبقة العامة، فيأخذ خمسة «شقيلات».

المادة 217 – : وإذا كان المريض عبداً لنبيل من النبلاء، فعلى مالك العبد أن يعطى الجراح شيقلين من الفضة أجرة له.

المادة 218-: إذا أجرى جراح عملية كبيرة على رجل شريف بمبضع من البرونز، وتسبب عن ذلك موت النبيل، أو إذا فتح محجر عين نبيل من النبلاء، وتسبب عن ذلك تلف العين، فتقطع يد الجراح.

المادة 219 - : إذا أجرى جراح عملية كبيرة على عبد نبيل من النبلاء بمبضع من برونز، وتسبب عن ذلك موت العبد، فسوف يعوض النبيل عبداً بعبد.

المادة 220 - : وإذا فتح جراح محجر عين عبد بمبضع من البرونز وأتلف عينه، فسوف يدفع نصف ثمنه من الفضة.

المادة 221 - : إذا جبّر جراح عظم نبيل من النبلاء، أو أنه عالج عضلاً ملتوياً فشفاه، فعلى المريض أن يدفع خمسة شيقلات من الفضة أجرة على الجراح.

المادة 222 - : وإذا كان المريض من الطبقة العامة، فإنه يدفع ثلاثة شيقلات من الفضة.

المادة 223 - : وإذا كان المريض عبد رجل شريف، فعلى مالك العبد أن يدفع شيقلين من الفضة أجرة على الجراح.

وفى شريعة حمورابى ثلاثة بنود على الأقل نفهم منها أن الاطباء الجراحين فى بابل كانت لهم خبرة بجراحة أمراض العين التى حتى لو كانت بجفن العين لا فى محجرها، لتطلب لها من له خبرة واسعة فى استعمال أدوات دقيقة تطابق شكل العين وتركيبها، هذا إذا لم يقصد بجراحة العين معالجة أمراضها بالأدوية لا بالالات الجراحية[4].

وقد عرفنا من الشذرات التى وصلت إلينا عن الطب البابلى أنه طب ثيوقراطى يجمع بين الأدوية الطبية والتمائم، ويقول بالرقى والتعاويذ. فالآلهة هى مصدر الخير والشر، والأمراض إنما هى دلالات على سخطها. ومع أن الآلهة هى التى تسبب المرض إلا أنه من الممكن أن يصدر عن الشياطين أو العين الشريرة

أيضاً. ومع أن الإيمان بقوة الشياطين أو النسوة الساحرات يناقض القوة الإلهية، فان المعتقدات الدينية القريبة من الأوهام والخرافات قليلاً ما كانت تقيم وزناً لهذا التناقض، بل انها لتمضى فيه إلى غايته دون الشعور بأى حرج. فالطريق الوحيد إلى الشفاء لا يكون إلا بالصلاة والدعاء وتقريب القرابين لإرضاء الآلهة، وباستعمال البخور والعقاقير المضادة للشياطين إذ أن العقاقير الطبية وحدها لا تجدى كثيراً، وإذا ما استخدمت فانها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض، بل لإرهاب الشيطان واخراجه من الجسم، ولذلك فان الطبيب والكاهن كانا يعملان معا، ولعل الطبيب كان كاهناً أيضاً[5].

فعلى الرغم مما وصل إليه العراقيون القدماء من معلومات مهمة عن الأمراض وتشخيصها ومعرفتهم بالعقاقير وتركيبها، فقد ظل الطب عندهم يخالطه الكثير من العمليات السحرية كاستعمال الرقى والتعزيم. ومنشأ ذلك بالدرجة الأولى هو الاعتقاد أن مصدر الطب عند العراقيين القدماء، كغيره من المعارف، من الآلهة التى يرجع إليها فن الشفاء والتطبب. وكان الاله «أيا» الإله الحكيم، هو إله الطب والأطباء. وحيث إن علاقة الآله ايا بالماء، فان هذا يعنى بأن كان للماء دور كبير فى الطب. كما أن الطبيب نفسه كان يسمى بالمصطلح السومرى «ازو» الذى أصبحت بالأكدية «أسو» ويعنى «العارف بالماء» . وتشير النصوص المسمارية إلى أنه كان فى العراق القديم منذ مطلع الألف الثانى ق.م الأطباء الجراحون ومجبروا العظام والبياطرة وأطباء العيون، وقد أشارت إلى بعضهم نصوص قانون حمورابى. كما كان الأطباء على مراتب مختلفة حيث كان منهم كبير الأطباء، وربما كانوا يرتدون أزياء خاصة بهم، وكان لهم آلاتهم وأدواتهم الخاصة، وقد خلف لنا الأطباء اعداداً من النصوص الطبية يمكن أن نميز فيها صنفين رئيسيين، الأول هو نصوص خاصة لتشخيص المرض والانذار أو التنبؤ، أما الصنف الثانى فيتألف من نصوص خاصة بالعلاج والتداوى، أى وصف الأدوية ويقتصر الصنف الأول على فحص المريض وبيان رأى الطبيب فيما إذا كان المريض سيشفى أم لا. وغالبا ما تختلط الأساليب السحرية بهذا الصنف من النصوص. أما الصنف الثانى

فهو على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ تطور الطب وتقدمه، حيث تصف هذه النصوص الأعراض المرضية والأدوية اللازمة لشفائها، أى أنها كانت بمثابة مراجع أو أدلة للأطباء الممارسين[6].

إذن، لم يمنع اختلاط الطب بالسحر من وجود اتجاهات طبية معقولة فى الطب السومرى البابلى، فعلى الرغم من أن الكاهن الطبيب أو الطبيب الكاهن كانا يعملان سوياً، إلا أن الدراسات الطبية قد صنفت الاطباء حسب تخصصاتهم إلى ثلاثة أصناف[7]:

1- **الكاشف:** وهو الخبير بتشخيص المرض والإخبار عما ستؤول إليه حالة المريض وهو الذى يستدعى أولاً لزيارة المريض ويستعين فى تشخيصه بأمور روحانية وبيئية وسريرية، ويصدر حكمه فى التشخيص والإنذار، ويترك المعالجة للآسى، عدا الأدعية والرقى، فيقوم بأدائها هو إذا اقتضى الأمر.

2- **الآسى:** وهو المهتم بالجزء المادى من الطب فهو الذى يصف الدواء ويحضره، وينصح بكيفية استعماله، ويوصى بنوعية الطعام للمريض وقد ينصح بإجراء المداخلة الجراحية عندما يرى ذلك ضرورياً.

3- **الجرّاح:** وهو الصنف الذى لم تذكره النصوص الطبية صراحة إلا فى النادر، غير أن الشرائع والأحكام والملاحم والعقود قد ذكرت ما يكفى لإعطاء صورة واضحة عنه. فالجراحة لابد وأن تكون شائعة آنذاك لكى تتطرق لها التشريعات، فقوانين حمورابى مثلاً ذكرت الجراح بنصوص يفوق عددها النصوص التى تناولت الطبيب، كما وأن اكتشاف آلات جراحية من العهد السومرى يدل على أن الجراحة كانت ممارسة من قديم الزمان.

إذن علينا أن نسأل عن مقدار ما عرف البابليون من التشريح؟ والجواب فيما يبدو لنا هو أن معرفتهم كانت بدائية، بل أكثر بدائية من معرفة المصريين، وجاءت هذه المعرفة من تقطيع الحيوانات التى تذبح لترضية الآلهة أو لإطعام

الناس. وجاءت معرفتهم بالتشريح البشرى من حوادث الأفراد فى الحرب والسلم. والأدلة الوحيدة على معرفتهم المفصلة هى قوائم أسماء الأعضاء فى شروح معاجمهم، وهى الطحال والمعدة والكليتان والقلب والرئتان والكبد، وهى أهمها جميعاً عند البابليين، فحين يفقد المرء دماً يغمى عليه، وإذا لم يوقف مسيل الدم فإنه يموت حالا، إذن فالدم سائل الحياة. وحينما تفتح جثة، فالكبد تبدو أوضح عضو فيها، كما أنها عضو الدم، وسدس دم الجسم الانسانى موجود فيها، إذن فالكبد عضو الحياة وموضع العواطف والحياة نفسها، أما القلب فهومستودع الفهم[8].

ومارس البابليون معالجة الرضوض بالتضميد، وخلع المفاصل، وكسور العظام بالجبائر، ولم يكتشف فى آثار بابل ما فيه دلالة قاطعة على أن شعوب هذه الدولة قد مارست الختان. وسكت المؤرخون عن ذكر هذه العملية فى بابل بالنفى أو التثبيت، على أن اتصال البابليين باليهود على مدى القرون الأخيرة من حكم الكلدانيين يجعل الباحثين يميلون إلى أنهم مارسوا هذه العملية، وقد يكونوا قد مارسوها على الصبية من الذكور والأناث كما كان يفعل معاصروهم المصريون[9].

أما عن العلاجات، فقد تبين من أثر يوجد حالياً فى متحف فيلادلفيا يرجع تاريخه إلى سنة 2100 ق.م. أن أحد الأطباء بيّن علاجات وأدوية للاستعمال الداخلى، ومراهم للاستعمال الخارجى، وذكر فوائد بعض الأملاح، واللبن وجلود الحيات ودروع السلاحف، وأدوية نباتية، منها الزعتر، والحلتيت، والأنس، والأشجار، والأزهار، والبذور، والقشور، والثمار، والصمغ[10].

ويقال إن[11]: البابليين كانوا يعرضون مرضاهم فى الساحات العامة ليصف لهم الدواء كل من اصيب أو سمع بمرضهم. وقد ورد فى لوحات مكتبة أشور بانيبال الطبية اسم 250 نوعاً من النباتات يستعمل فى الطب، و120 مادة معدنية، و180 مادة متفرقة تستعمل لنفس الغاية. كما صنف البابليون الأعشاب إلى سامة ومنومة ومخدرة ومسهلة حسب خصائصها. وأبرز ما امتاز به الطب الأشورى فى

المعالجة هو تعدد الوصفات لمرض واحد لاستعمالها في حالة فشل إحداها ومن المميزات الأقرباذينية في ذلك الوقت تحضير الدواء على أشكال مختلفة كالمحاليل والعصارات والمنقوعات والمعلقات والسفوفات والنعوقات واللبوسات.

ومن الأدوية التي ورد ذكرها في النصوص البابلية: النعناع، الزعفران، الزعتر، الثوم، العسل، الشمع، الزيتون، قشر الرمان، بصل العنصل، الخربق، المرّ، بذر الكتان، الخردل، السكران، الآس، الوج، الحلتيت، العرق سوس، الخشخاش، النحاس، الحديد، ماء الورد، الحضض، الشمار... وغير ذلك.

يقول چورج قنواتي[12]: وقد وصلنا عدد كبير من الوثائق الازشورية والبابلية الخاصة بالطب منقوشة على ألواح الطين ومكتوبة بحروف مسمارية. وهي تشتمل على ثلاثة أنواع من البيانات: القسم الأول خاص بقوائم من الأعشاب الطبية. والقسم الثاني مجموعة من الوصفات العلاجية المختلفة مرتبة حسب العضو المريض. والقسم الثالث خاص بمناقشة تشخيص الأمراض والتنبؤ بسيرها.

أما المجموعة الأولى فهي تحوى نصاً ذا شأن كبير في دراسة الطب البابلي، وهي عبارة عن مذكرة كانت في حوزة طبيب، ومرتبة في ثلاثة أعمدة: ففي العمود الأول يذكر اسم العشب، وفي العمود الثاني المرض الذي يعالج بهذا العشب، وفي العمود الثالث طريقة استعماله على هذا الشكل:

المر ..... – دواء لليرقان .... – يطحن ويشربه في البيرة.

وفي القسم الثاني الخاص بالوصفات العلاجية، نجد أنها محرَّرة على نظام يكاد يكون ثابتاً. وهي تتكون من ثلاثة أقسام أساسية هي 1- سرد أعراض المرض. 2- الإشارة إلى الأدوية التي يجب استعمالها وطريقة تحضيرها وإعطائها للمريض. 3- الاشارة إلى نتيجة العلاج.

والقسم الثالث من النصوص الطبية مخصوص للتنبؤ عن تحول ومصير الأمراض. وتتميز نصوص هذا القسم بأنها لا تحوى علاجاً البتة. وهي تكون كتاباً

على حدة، تمكن العالم الدكتور Labat من إعادة تنسيق أقسامه المتفرقة. وتحتوى المجموعة على أربعين فصلاً منقسمة إلى خمسة أقسام يحمل كل منها اسماً خاصاً. والكل مرتب ترتيباً منطقياً متسلسلاً. وهناك تقسيم آخر ثنائى يجمع فى النصوص بين ما هو خاص «بالاعضاء المريضة» و«ظواهر المرض». ومن الغريب أننا سنجد عند جالينوس تقسيما مشابهاً عندما يقسم الأدوية «حسب الأعضاء المريضة» و«حسب ماهية المرض»!

من كل ما سبق يتبين لنا مدى الشوط الذى قطعه الاطباء والصيادلة البابليون، فقد استطاعوا أن يحرزوا تقدماً ملموساً فى الطب والصيدلة، اتفق بوجه من الوجوه مع حضارتهم المعروفة آنذاك.



هوامش ومراجع الفصل الثانى

(1) د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، ط الأولى، دار المعارف 1403هـ - 1983م، ص7.

(2) د. عباس سليمان، د . حسان حلاق، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1998، ص 137.

(3) جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الأول، ترجمة لفيف من الدكاترة، دار المعارف بمصر 1959، ص

(4) د. كمال السامرائى، الطب الجراحى عند العرب، بحث ضمن بحوث الندوة القومية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمى العربى، الجزء الثانى 1989، ص 3.

(5) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، دار الفيحاء، بيروت 1978، ص 83-84.

(6) راجع، د. صالح أحمد العلى، وآخرون، العراق فى التاريخ، بغداد 1983، الجزء الأول، ص 233- 234.

(7) د. عبد اللطيف البدرى، الطب عند العرب ص 19، نقلا عن د. محمود الحاج قاسم، الطب عند العرب والسلمين، تاريخ ومساهمات، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط الأولى 1407هـ - 1987م، ص 18.

(8) راجع، جورج سارتون، مرجع سابق، ص 202.

(9) د. كمال السامرائى، الطب والجراحة عند العرب، م.س، ص 4.

(10) أحمد شوكت الشطى، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، دمشق 1967، ص14.

(11) د. محمود الحاج قاسم، مرجع سابق، ص 20.

(12) جورج شحاته قنواتى، تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط، طبعة دار المعارف بمصر 1959، ص 19، وبعدها.



الفصل الثالث
طب الحضارة الفارسية



بلاد فارس هى ما نسميه إيران اليوم، وسكانها المنتمون إلى الأصل الآرى كانوا فى البدء قبائل متفرقة أكبرها قبيلة «الأخمديين» ثم تمركزوا فى الجنوب الغربى من البلاد وكونوا ما يشبه الدولة، ولكنهم كانوا يدينون لدولة «الميديين» التى تأسست فى منطقة الشمال الغربى من البلاد، ثم توسعت رقعتها عبر آسيا الصغرى حتى جاوزت اليونان. وفى عام 555 ق.م استطاع «قوروش» أحد زعماء قبيلة «الاخمديين» أن ينتزع السلطة من الميديين ويؤسس دويلة الفرس التى أخذت فى النمو والازدهار حتى أصبحت امبراطورية تمتد إلى بلاد السند فى الشرق وبلاد ما بين النهرين والساحل الفينيقى ومصر وآسيا الصغرى وشمالى اليونان فى الغرب. ومن ثم أصبحت الحضارة الفارسية حصيلة لحضارات الأمم والشعوب التى أخضعتها، حتى أن البلاط تكاثر فيه علماء وأطباء ومنجمون من بابل ومصر والهند واليونان. وفى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بدأت أحوال الامبراطورية الفارسية فى التدهور بسبب اتساعها وصعوبة إدارتها، إلى أن سقطت فى عام 331 ق.م فى قبضة الإسكندر المقدونى الذى قسمها إلى دويلات صغيرة حتى لا تقوى على تهديد بلاد اليونان. واستمر حكم الاغريق للفرس حتى عام 226م حينما نبغ «أردشيرين بابك» مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة، وأعاد إلى سلطانه الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار. وبقيام الدولة الساسانية فى فارس أصبحت عاصمتها طيسفون (المدائن على دجلة) مركزا هاماً للتجارة الشرقية، وانتقلت القوة الاقتصادية إلى أيدى الفرس الذين سادوا النشاط التجارى فى الخليج العربى حتى قرب ظهور الاسلام[1].

وفيما يتعلق بالطب، نجد الشاهنامه[2] تذكر أنه بدأ فى عصر «جمشيد» الذى تتبع المعادن فاستخرج منها بدقائق فطنته الذهب والفضة والياقوت والفيروزج، وسائر الأعلاق النفيسة من أصناف الجواهر، فرصع بها المناطق، ووشح منها الأسرة والعصائب، واقتنى منها الذخائر، وكنز الكنوز وملأ الخزائن. ثم أخرج [illegible] أنوار الورد

والأزاهير حتى حصل منها أمواهاً تتنفس عن روائح تفعم الخياشيم، وتنعش الأرواح والنفوس. وأظهر علوم الصناعة الطبية وتصرف فى أفانينها، وتقلب فى أساليبها ووقف على أسرارها الغامضة، ودقائقها الخفية. وتعرف خواص الأدوية فشاعت هذه الصناعة بين الناس من ذلك الزمان.

يتضح أن جشميذ الفارسى الذى به ابتدأ الطب، لم يكن طبيبا فحسب، بل أول كيميائى فارسى أيضا، استخرج المعادن النفيسة، لاسيما الذهب والفضة، وعرج منها إلى اخراج أنواع الطيب كالمسك والعنبر والكافور. ويبدو أن معلوماته الكيميائية والنباتية هذه كانت بمثابة الأسس المعرفية التى انطلق منها إلى إظهار علوم الصناعة الطبية. وهذا ليس بمستغرب، فالطبيب إلى اليوم لابد وأن يكون ملمّاً حتى ولو بأطراف علم المعادن، وعلم النبات. ولكن الغريب أن جشميذ الفارسى قد استطاع الإلمام بذلك فى ذلك العصر الموغل فى القدم.

وفى الشاهنامه[3] أيضاً جاء ذكر أول ولادة قيصرية فى التاريخ، وهى ولادة رستم بن دستان. فحينما أتى أم رسُتم، واسمها رؤذابة، المخاض وتعسر الوضع، قيل لزال (زوج رؤذابة): تأخذ بإذن الله تعالى حديدة حادة، وتدفعها إلى آس حاذق، وتُعَلُّ الحاملة بأرطال من سلاف العقار حتى يملك السكر عنان حواسها[4]؛ ثم يشق الحكيم بتلك الحديدة خاصرتها ويستخرج منها الولدة، ثم يخيط الشق ويرتق الفتق. ثم تؤخذ حشيشة كذا وكذا، وتدق بلبن ومسك، وتجفف فى الظل وتسحق، ثم تذر على موضع الشق. فهنالك يسهل جميع الحزون. ولا تستهولن ذلك، واطلق لسانك بشكر الله تعالى. فبادر «زال» وأعد جميع ما أُشير به عليه، والخلق مجتمعون يقضون العجب من تلك الحالة. ثم جاءوا بموبذ خفيف اليد أحذق أهل زمانه فى صناعته، فسقى رؤذابة من المداد الصرف أقداحاً حتى سكرت وخرت صعقة لم تحس بشئ، فاستل تلك الحديدة وشق خاصرتها، ثم استخرج منها بخفة وسرعة يد ولد لم ير مثله قط. قد صوره الله تعالى على خلقة تعجب العيون وتروق القلوب. وبقيت أمه على حالها مغشياً عليها يوماً وليلة. ثم أفاقت بعد ذلك

فنثروا عليها الذهب والجوهر، ودعوا الله تعالى وحمدوه على ما أسدى إليهم.

هذا أول وصف لعملية بقر البطن لاستخراج الجنين أو عملية الخشعة، وهى ما تعرف أيضاً بعملية القيصرية لأن يوليوس قيصر ولد بها حسبما جاء فى أساطير الرومان.

ومما لاشك فيه أن الطبيب الفارسى الذى يقوم بهذه العملية الجراحية لابد وأن يكون لديه خبرة طبية كافية لإجراء مثل هذه العملية الخطيرة آنذاك. وقد جاءت هذه الخبرة من دعوة الحضارة الفارسية أصحابها إلى الانفتاح والاستفادة من علوم الحضارات الأخرى.

فالطب الفارسى كان مزيجاً من الطب اليونانى والهندى والمصرى، وقد دخل الطب اليونانى حسب بعض الروايات إلى بلاد فارس على أثر زواج إبنة القيصر أوليتوس بملك الفرس سابور، إذ كان فى حاشيتها عدد من الأطباء اليونانيين، فنقلوا الطب اليونانى إلى فارس، واستقدم ملوك فارس الأطباء المصريين[5]، ففى عهد أسرة الكيانيين Achaemenian (القرن السابع ق.م تقريبا) استقدم دارا بن داراب عدداً من الأطباء المصريين لبلاطه الخاص، وكان عظيم الثقة بهم، فنشروا وصفاتهم بين الفرس[6].

وكان الطب الفارسى قد اختلط بأعمال الكهنة، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان قد خلق 999 99 مريضاً يجب معالجتهم بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة. وكانوا يعتمدون في علاج المرضى على الرُقى والتعاويذ أكثر من العقاقير، وحجتهم فى ذلك أن الرُقى إن لم تشف المرض، فانها خلافاً للعقاقير لا تقتل المريض. وكان (ميترا) هو إله الطب عندهم وقد احتوى كتابهم على العديد من الأمراض مع طرق معالجتها. وهكذا نشأ الطب بين رجال الدين وفى كنفهم وتحت رعايتهم، حتى إذا كان عهد (أرت خشتر الثانى) وزادت فى فارس ثروة البلاد زيادة مطردة، تكونت فى فارس نقابة للاطباء والجراحين، وحدد القانون اجورهم وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية وقد نص القانون على أن

يعالج الكهنة من غير أجر[7].

ويمثل فتح الاسكندر الأكبر لبلاد الفرس سنة 331 ق.م أكبر النكبات التى مرت بها الفرس وعرتهم عن حضارتهم، فقد تلف فى هذه الحرب كثير من خزائن كتبهم.

ولم نجد ما هو جدير بالتسجيل عن الطب فى هذه الفترة سوى ما رواه الفردوسى فى الشاهنامه[8]: من أن الاسكندر لما استتبت أموره بإيران، عزم على قصد ملك من ملك الهند[9] يسمى كيدا، فكتب إليه كتاباً أمره فيه بالخروج إلى خدمته والدخول تحت طاعته: فكتب كيدا جواب ذكر فيه أن له أربعة أشياء لا يملكها أحد غيره، ولا مثل لها فى جميع العالم. قال: وإن أمر الملك نفذتها إليه، ثم حضرت بنفسى بين يديه. فبعث الاسكندر إليه يسأله عن الأشياء الأربعة. فقال: أحدها بنت وراء سترى ليس لها نظير فى الحسن والجمال وكمال الآداب. والثانى جام إذا ملأته بالماء أو بالشراب لم ينقصه الشرب منه وإن شربت منه مع الندماء عشر سنين. والثالث طبيب إن أقام مع الملك لم يصبه داء مدّة حياته. والرابع فيلسوف يخبر الملك بجميع ما يكون قبل وقوعه. فأرسل الاسكندر فى طلبهم.... فلما أتوه، سأل الطبيب عن أعظم أسباب الأمراض. فقال: أن يأكل الرجل فاضلاً عما يحتمله المزاج، ولا يضبط نفسه عند حضور الطعام. ثم قال: وإنى سأركب لك دواء إذا استعملته كنت أبداً صحيح الجسم، قوى النفس، مسرور القلب، مشرق اللون، منجذب الطبع إلى أعمال الخير، ثم لا يعتريك معه الشيب، ولا يضرك كثرة الأكل، ويزيد فى شهوتك وحفظك ودمك، ولا تحتاج بعده إلى شرب دواء آخر. فقال الاسكندر: إن فعلت ذلك كنت عندنا الموقر المكرم. وخلع عليه وأكرمه، وقدّمه على جميع من بحضرته من الأطباء. فصار إلى بعض الجبال وجمع الحشائش التى هى أخلاط ذلك الدواء. ولما فرغ من عمل الدواء الجبلى غسل به عقب الملك. وكان من بعد يلازمه ويحفظ صحته.

وبعد غزو الاسكندر، شهدت بلاد الفرس حالة من الخمول والضعف طيلة ستة

قرون. فلما جاءت الدولة الساسانية (226 652م) استعادوا أدبهم وعلمهم. وكان أظهر ملوكهم فى الميل إلى العلم، وتشجيعه أردشير بابك (226 - 241م) الذى بعث فى طلب الكتب من الهند والروم والصين. كذلك كان الحال فى عهد ابنه سابور، وعهد كسرى أنوشروان[10]. وذكر صاحب مقدمة فى تاريخ الطب العربى[11] أنه فى عهد الدولة الساسانية هذه جمعت نصوص الكتاب المقدس المسمى «بالأفستا» بعد أن كانت مشتتة، ووضع لها الشرح المسمى «زاندافستا»، والذى يختص بالطب من هذا الكتاب الفصل الذى عنوانه Venidad. وكان الطب عند الفرس خليطاً من التعزيم والرقى وشئ من المبادئ الطبيعية العلمية. وعندهم أن اله الشر أهريمان Ahriman أطلق جميع الأمراض وسلطها على الناس وعارضه اهرومازدا Ahrumazda إله الخير وعلم الناس جميع الأدوية الضرورية لحفظ صحتهم. وفى عام 272م أنشئت فى الرها مدرسة للطب أنشأها القديس افرام، وكان يؤمها الطلاب من الفرس والسريان واليهود وغيرهم، وبلغت شهرة عظيمة حتى عام 489م حينما أقفلها الامبراطور Zeno، وشرد رجالها الذين ينتمون لطائفة النساطرة، فالتجأوا إلى مدينة جنديسابور ببلاد فارس، وهناك وجدوا من عطف الأكاسرة ما شجعهم على بناء البيمارستانات وتعليم الطب فبلغوا فى ذلك شأوا بعيداً. واستمر هذا شأنهم إلى حين ظهور الاسلام.



هوامش ومراجع الفصل الثالث

(1) راجع، د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، ط الأولى، القاهرة 1403 هـ/ 1983م، ص 8.

(2) أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامه، ترجمة الفتح بن على البندارى، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993، الجزء الأول، ص 23.

(3) الشاهنامه، 76/1.

(4) إشارة إلى التخدير بالخمر.

(5) د. فرج محمد الهونى، تاريخ الطب فى الحضارة العربية الاسلامية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، الطبعة الأولى 1395 - 1986 ص 24.

(6) التيجانى الماحى، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، ص 33.

(7) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص 88-89.

(8) الشاهنامه، ص 4-6.

(9) كانت الهند من أملاك الفرس فى ذلك الوقت.

(10) انظر الفصل الخاص بحركة الترجمة من هذا الكتاب.

(11) التيجانى الماحى، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، ص 33 -34.



الفصل الرابع
طب الحضارة الهندية



استفاد الهنود من اسهامات الحضارة البابلية فى الطب والصيدلة، ولكنهم لم يتوقفوا عند الممارسات الطبية البابلية التى عرفوها، بل أضافوا إليها إضافات جوهرية اختصوا بها، ويتميز بها طبهم «كطب هندى».

بعد أن يحمد صاعد الاندلسى[1] الهند كأمة فخمة الممالك قد اعترف لها بالحكمة، وأقر لها بالتدبير فى فنون معرفة جميع الملوك السالفة والقرون الخالية، يذكر أنهم بعد هذا أعلم الناس بصنعة الطب وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات.

ويبدو أن كلام «صاعد» هذا على درجة كبيرة من الصحة، فلقد وجد فى الهند مركزان علميان كبيران كان الطب من أهم العلوم التى تدرّس فيهما. ومن المصادر التاريخية الطبية الهندية التى ذاع صيتها، كتاب سردا، وكتاب شاراكا، وهما كتابان متشابهان فيما يحتويان عليه من معارف، حيث يشملان على أسماء العقاقير الطبية المعروفة آنذاك. ويعتمد الطب الهندى فى المعالجة على توصيات صحية وأدوية مستحضرة من النباتات، والحيوان، والمعادن، اتخذت صور عدة فمنها: نقوعات، ودهونات، وتبخرات. كما اهتم الطب الهندى بالجراحة، إذ تذكر بعص المصادر الكثير من العمليات الجراحية البسيطة، مثل فتح البطن، وتقطيع الجنين، وتجميل الأنف، والشق الجراحى، وغيرها[2].

وإذا كان كتاب سردا، وكتاب شاراكا يمثلان أهم المصادر الهندية الطبية، إلا أن مدونات الطب الهندى تبدأ بكتاب (اترافا – فيدا). ففى هذا الكتاب نجد جدولاً طويلاً بأسماء أمراض مقرونة بأعراضها، لكنها مقرونة بكثير من السحر والطلاسم. فقد نشأ الطب هناك ذيلاً للسحر. فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل مادية لشفاء المريض، على أساس أن هذه الوسائل من شأنها مساعدته على نجاح ما يكتبه من صيغ ورقى روحانية. وبمضى الزمن زاد الاعتماد على الوسائل المادية دون أن يتخلص الطبيب مع ذلك من تعاويذه السحرية[3].

ويذهب الطب الهندى القديم، إلى أن المرض سببه اضطراب فى العناصر

الأربعة[4]، وان الشفاء إنما يكون بالعلاج بالاعشاب والتمائم السحرية لإزالة هذا الاضطراب. والماء بحسب الطب الهندى هو خير علاج لمعظم الأمراض. وعلى الرغم من تحريم البراهمة[5] تشريح جثث الموتى، إلا أن بعض أطبائهم كان ينصح بذلك لتدريس الجراحين على أعمال الجراحة. ولقد كانوا بارعين فى الجراحة حقا، فقد بتروا الأطراف، وأجروا جراحة البطن، وجبروا العظام، وأزالوا البواسير، ودعوا إلى تعقيم الجروح بالتبخير. وهذه الدعوة هى أول ما نعرفه من جهود فى وسائل التطهير أثناء الجراحة. وقد ذكر بعض أطبائهم فوائد أنواع من الشراب العلاجى فى تخدير الجسم وإيقاف احساسه بالألم. ويقال إن الهنود قد أجروا جميع العمليات الجراحية ما عدا عملية ربط الشرايين[6].

وكان أطباء الهنود يحذرون من الاسراف فى استخدام العقاقير فى مقابل النصح باستعمال الأدوية النباتية والأعشاب الطبية. وانصبت نظرية العلاج عندهم على نظام الغذاء والحمية. وكانوا أكثر ميلاً إلى استعمال الأدوية من الخارج مثل المساحيق المعطسة، والمراهم، والمقيئات واستعمال الحمامات البخارية.

ولازالت الهند تهتم اهتماماً كبيراً بالعلاج بالأعشاب فى الوقت الحاضر، فالطب الشعبى مازال يغطى 70٪ من احتياجات الناس. ويحصل الأطباء المختصين بذلك على دراسات جادة فى حوالى 108 مركز صحى تعليمى منتشرة فى أناء الهند، وتهتم بالأطباء الشعبيين، وتمنحهم تراخيص مزاولة المهنة. ويبلغ عدد هؤلاء الأطباء حاليا أكثر من 600.000 ممارسا[7].

وقسم علماء الهند العقاقير إلى ثلاثة أصناف نباتى وهو المهم بالنسبة لهم، ومعدنى، وحيوانى. كما قسموا ما عرفوه من هذه الأصناف الثلاثة إلى سبعة وثلاثين قسماً حسب صلاحية استعمالها لعلاج الأمراض التى تصيب الانسان[8]. والعقاقير النباتية منها البيس والصبر وعرق الأيكى والحشيش والزعفران والكركم والخروع والقنبيل.... الخ. أما العقاقير المعدنية فهى الشب والزرنيخ والبورق وكبريتيد الزئبق وأكسيد الخارصين، وكذلك مجموعة من العقاقير الحيوانية كالزراح والمسك ولحم الحيات ودهون مختلفة... الخ. وكل هذه العقاقير مقسمة

إلى 37 قسماً بحسب ما تعالجه من أمراض. كما أنها مقسمة إلى خمسة مجموعات هى: المقيئات، والمسهلات، والغسولات، والحقن الشرجية الزيتية، والمعطسات[9].

ولقد نال أطباء الهنود شهرة عالمية فى صنع أنواع من الترياق تمنع تأثير السموم فى البدن، ولا يزالون يفوقون الأطباء الأوربيين فى علاج عضة الثعبان. وقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة 550 ميلادية ، وذلك بناء على نص لأحد أطبائهم يقول فيه: «خذ السائل من البثور التى تراها على ضرع البقرة.. خذه على سنان المشرط، واعمل بعد ذلك إلى وخز الأذرع وما بين الاكتاف والمرافق حتى يظهر الدم، وعندئذ يختلط السائل بالدم، فتنشأ عن ذلك حمى الجدرى». وأشاروا إلى أثر البعوض فى إحداث الملاريا قبل أن يصبح ذلك حقيقة علمية بمئات السنين. وكانوا يعرضون على كل من يمارس الطب تأدية قسم هو أشبه ما يكون من حيث المضمون الأخلاقى والأدب المهنى بقسم ابقراط رائد الطب اليونانى[10].

أما عن أشهر أطباء الهند، فقد أفردت بعض كتب التراجم الطبية العربية[11] صفحات خاصة، يمكن أن نجتزئ منها ما يلى:

1- **كنكه الهندى:** حكيم بارع من متقدمى حكماء الهند وأكابرهم، وله نظر فى صناعة الطب، وقوى الأدوية، وطبائع المولدات، وخواص الموجودات. ومن كتبه: كتاب النموذار فى الأعمار. كتاب أسرار المواليد، كتاب الطب وهو يجرى مجرى كُناش..

2- **صنجهل:** كان من علماء الهند وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم. وله من الكتب: كتاب المواليد الكبير. وكان بعد صنجهل الهندى جماعة فى بلاد الهند ولهم تصانيف معروفة فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم مثل باكهر، راحه، صكه، داهر، انكر زنكل، جبهر، اندى، جارى، كل هؤلاء أصحاب تصانيف.. والهند تشتغل بمؤلفات هؤلاء فيما بينهم ويقتدون بها ويتناقلونها وقد نقل كثير منها إلى اللغة العربية[12].

3- **شاناق:** من المشهورين أيضاً من أطباء الهند. وكانت له معالجات وتجارب كثيرة فى صناعة الطب، وتفنن فى العلوم والحكمة، حسن الكلام، متقدماً عند ملوك الهند. ولشاناق من الكتب: كتاب السموم خمس مقالات، ونقله من اللسان الهندى إلى الفارسى منكه الهندى، وفسره أبا حاتم البلخى ليحى بن خالد بن برمك، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه والذى تولى قراءته عليه. كتاب البيطرة. كتاب فى علم النجوم.

4- **جودر:** حكيم فاضل من حكماء الهند وعلمائهم، متميز فى أيامه، وله نظر فى الطب وتصانيف فى العلوم الحكمية، وله من الكتب: كتاب المواليد، وقد نقل إلى العربى.

5- **منكه الهندى:** كان عالماً بصناعة الطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوفاً من جملة المشار إليهم فى علوم الهند، متقناً للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذى نقل كتاب شاناق الهندى فى السموم من اللغة الهندية إلى الفارسية. وكان فى أيام هارون الرشيد، وسافر من الهند إلى العراق فى أيامه، واجتمع به وداواه. فيروى أن الرشيد اعتل بعلة صحية، فعالجه الأطباء، فلم يجد من علته إفاقة. فقال له أبو عمى الأهجمى: بالهند طبيب يقال له منكه، وهو أحد عُبادهم وفلاسفتهم، فلو بعث إليه أمير المؤمنين، فلعل الله يهب له الشفاء على يده. فوجه الرشيد من حمله، ووصله بصلة تعينه على سفره، فقدم وعالج الرشيد، فبرأ من علته بعلاجه. فأجرى عليه رزقاً واسعاً وأموالاً كافية.

من كل ما سبق يتبين لنا مدى تفوق أطباء الهنود، وتمكنهم من الفن الطبى والعلاجى. وهم وإن كانوا قد تأثروا بالطب البابلى فى بعض جوانبه، فانهم أثروا فى غيرهم من الأمم لاسيما اليونان، فأرسطو فى نظر بعض الباحثين مدين بالكثير لأطباء الهند. وبالتبعية كان لطب اليونان دور ما فى تقدم الطب الهندى. أما تأثير هذا الطب على العرب، فيكفى اعتراف الخلفاء وخاصة الرشيد والمأمون، ببراعتهم الطبية، وليس أدل على ذلك من استقدام الخلفاء للأطباء الهنود

لمعالجتهم، وذلك في وقت كان فيه الطب العربي يشهد مرحلة التأسيس، والتي اكتملت في العصر العباسي الثاني، بظهور أئمة الطب في العالم حتى بداية العصور الحديثة، وفي مقدمتهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، طبيب المسلمين بدون مدافع، وجالينوس العرب.



هوامش ومراجع الفصل الرابع

(1) طبقات الأمم، ص 50، 52.

(2) د. أحمد شوكت الشطى، تاريخا لطب وآدابه وأعلامه ، ص 25 -26.

(3) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص 89 -90.

(4) العناصر الأربعة هى: التراب، والماء، والهواء، والنار، وهى فكرة يونانية الأصل.

(5) البراهمة: إحدى الفرق الدينية الهندية، وهى فرقة قليلة العدد فيهم شريفة النسب عندهم. ومنهم من يقول بحدوث العالم ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوات، وتحريم ذبح الحيوان، والمنع من إيلامه وأكل أقواته (صاعد الاندلسى، طبقات الأمم، ص 53).

(6) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، مرجع سابق، ص 90.

(7) انظر مقدمة تحقيقى لكتاب بُرء ساعة للرازى، طبعة ملتقى الفكر، الاسكندرية 1999، ص22.

(8) د. على عبد الله الدفاع، اسهام علماء العرب والمسلمين فى الصيدلة، ط الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1407 هـ، 1987م، ص 104.

(9) عبد العظيم حفنى صابر، وعبد الحليم منتصر، وجورج قنواتى، موجز تاريخ الصيدلة، نقلا عن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 104.

(10) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، مرجع سابق، ص 90 -91.

(11) ابن أبى أُصيبعة، عيون الانباء فى طبقات الأطباء ، ص 473، وبعدها.

(12) انظر الفصل الخاص بحركة الترجمة من هذا الكتاب فيما سيأتى.



الفصل الخامس
طب الحضارة الصينية



ينتمى الشعب الصينى إلى الجنس الأصفر، ويغلب عليه الطابع المغولى، ولقد ساعد وجود أحواض نهرية خصبة على تمركز الصينيين وتحقيق الكثير من الانجازات الحضارية منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عندما اندمجت العائلات الاقطاعية فى مملكتين كبيرتين تتنازعان السيطرة فيما بينهما بزعامة عائلة «تسين» فى الشمل الغربى وعائلة «تشيو» فى الجنوب. وفى عام 221 ق.م استطاع «تشيى – هوانج – تى» زعيم عائلة «تسين» أن يعلن نفسه أول امبراطور للصين، وأمر ببناء سور الصين العظيم أحد عجائب الدنيا السبع، وذلك لدرء أخطار المغول. وفى عهد «وو – تى» (140 – 87 ق.م) اتسعت حدود البلد لتشمل كوريا ومنشوريا وأنام والهند الصينية والتركستان. وتمتاز الحضارة الصينية القديمة بأنها من صنع الصينيين أنفسهم، ويذكر التاريخ أنهم لم يقتبسوا من غيرهم إلا القليل حتى أنهم تمسكوا بمعتقداتهم وفلسفتهم الخاصة، فتحزّب الكثير منهم إما لتعاليم الكونفوشيوسية، أو لاعتناق البوذية، وأقبلوا على الدنيوية لايمانهم بأن الانسان يجب أن يوجه اهتمامه للاستفادة من خبرات الحياة الدنيا. ومن العبث أن يشغل باله بغاية سواها. ولذلك نراهم لم يستجيبوا للمسيحية التى وصلتهم فى القرن السابع الميلادى على يد المبشرين النساطرة، ولا للاسلام الذى وصلهم على يد الأتراك والمغول، وظل تأثير الديانتين فى الصين محدودا. وفى مجال العلوم، يُعرف عن الصينيين أنهم أول من أعطى العالم فن الطباعة والورق والحبر والعملة الورقية والبارود والبوصلة وآلة تسجيل الزلازل، كما حققوا تقدماً ملموساً فى علوم الطب والصيدلة والفلك والرياضيات[1].

وكان الطب فى الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية، على ما يذكر ول ديورانت[2]، والذى يرى أن بدايته كانت قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد ابقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة «چو» تعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم فى الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة فى الاختبارات. وقد أمر حاكم صينى فى القرن الرابع قبل المسيح بأن تشرح جثث أربعين من

المجرمين المحكوم بإعدامهم، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظرى، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد. وكتب چانچ چونج - تنج فى القرن الثانى عدة رسائل فى التغذية والحميات ظلت هى النصوص المعمول بها مدى ألف عام. وكتب هوا- دو فى القرن الثالث كتاباً فى الجراحة، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذ يخدر المريض تخديراً تاماً. ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد، ولم يعرف عنها شئ. وكتب وانج شو - هو فى عام 3000 بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب.

ولقد ارتبطت الأمراض عند الصينيين بالفصول الأربعة، فرأوا أنها مسؤولة عن الأمراض، فأمراض الصدر تحدث فى الشتاء، والحميات تكثر فى الخريف، والأمراض العصبية تحدث فى الربيع، وتكثر الامراض الجلدية فى الصيف. أى أن الأمراض ترتبط بالحر والبرد والجفاف والرطوبة. والعلاج فى تلك الحالات يقتضى تقوية المريض لتتغلب طاقته الجسمية على المرض، وقالوا بإن المرض الواحد تختلف مظاهره باختلاف الأشخاص. كما كان من عادة الأطباء الصينيين أن يصرح كل منهم لذوى المريض بأسباب المرض وإنذاراته[3]. ومما لاشك فيه أن هذه النظرة مازالت سائدة فى الطب الحديث، من حيث أن معظم الامراض ترتبط فعلاً بارتفاع وانخفاض درجة الحرارة، فضلاً عن جفاف أو رطوبة الجسم أو البيئة الفيزيقية التى يعيش فيها.

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج - چنج وصفاً شاملاً لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية . وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاو يوان- فانج كتاباً قيماً فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلاً. وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج، كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج. وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة. وكان الأطباء يطنبون ويتحذلقون فى تشخيص الأمراض، فقد وصفوا من الحميات مثلاً

ألف نوع، وميزوا من أنواع النبض أربعا وعشرين حالة. واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدرى، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى[4].

ويعتبر شن نونج Shen Nung (حوالى 2200 ق.م) مؤسس الصيدلة فى الصين، وأول من ألف فى الأعشاب من الصينيين كتاب اسمه «بن تساوى» يحتوى على أكثر من 465 عقارا. ويعد شن نونج أول باحث يختبر العقاقير والنباتات الطبية على نفسه أولاً قبل تقديمها للناس كعلاج. ويعزى إليه أيضا اكتشاف خواص شجرة الافيدرا Ehedre التى استخرجت منها مادة الافيدرين الكثيرة الاستعمال فى الطب لاسيما علاج الاحتقان، والرشح، وأغشية الجيوب الأنفية.

وترجع مصادر معلوماتنا عن الطب والصيدلة فى الصين إلى بعض المؤلفات التى عرفت وورد ذكرها فى كثير من المراجع وهى[5]:

1- كتاب الموكنج Mo - King.

2- كتاب أدوية الخزانة الذهبية.

3- كتاب الوصفات العاجلة.

4- كتاب المائة وصفة.

5- كتاب بن تساو Pen Ts'om.

وقد ذكر «موجز تاريخ الصيدلة»[6] أن الصينيين كانوا يستعملون الأعشاب الطبية بنقعها فى الماء أو بغليها مع الماء، وأحياناً بتخميرها فى الماء لتصير على هيئة الجعة (البيرة)، ولكنهم لم يستعملوا التقطير فى تحضير الأدوية حيث أنه لم يكن لهم معرفة بهذه العملية. وكانوا فى علاجهم يستعملون كذلك المراهم، والضمادات، والأطلية والحمامات الباردة والساخنة والبخارية، والتدليك، ويستعينون بها فى الحالات الجراحية.. وبجانب الأعشاب الطبية استعمل الصينيون المواد الحيوانية للعلاج وبخاصة على هيئة مراهم، كما استعملوا المعادن والمواد الكيماوية. وقد عرفوا السموم وجربوها ووافقوا على طريقة فعلها، واستطاعوا بذلك أن يستعملوها فى أغراض طبية.

ومع كل هذا يذكر ول ديورانت[7] أن الإجراءات الصحية العامة والأدوية الواقية، والقوانين الصحية لم تتقدم تقدما يذكر فى بلاد الصين. كما كان نظام المجارى والمصارف بدائياً، إذا كان قد وضع لهما نظام على الإطلاق!. وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم – ضمان ماء الشرب النقى والتخلص من الفضلات. كما كان الصابون من مواد الترف التى لا يحصل عليها إلا الأثرياء الممتازون، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار. وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسيين. ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج – دى إلى أيام الملكة الوالدة. ولعل فى وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب فى أوربا من عهد أبقراط إلى عهد باستير. وغزا الطب الأوربى بلاد الصين فى صحبة المسيحية، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة. أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية.

هوامش ومراجع الفصل الخامس

(1) راجع، د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص 10 - 11

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع، ترجمة محمد بدران، طبعة مكتبة الأسرة 2001، ص 253 - 254.

(3) د. أحمد شوكت الشطى، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، ص 37.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، 254/4.

(5) د. على عبد الله الدفاع، مرجع سابق، ص 101.

(6) عبد العظيم حفنى صابر، وعبد الحليم منتصر، وجورج قنواتى، موجز تاريخ الصيدلة، نقلا عن على عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 100 - 101.

(7) قصة الحضارة 255/4.



الفصل السادس
طب الحضارة اليونانية



لعبت الأساطير القديمة دوراً بارزاً فى حياة اليونانيين بشتى مجالاتها، فقد تصوروا آلهتهم يقبعون على جبل الاوليمب، وكثيراً ما يهبطون إلى الأرض ليشركون الناس فيما يعتريهم من أحوال.

ولقد نصبت هذه الأساطير أبولو Apollo أو Paean إلهاً الشفاء وطبيباً لآلهة الجبل[1]، يضمد الجراح، ويشفى العلل بالأعشاب التى كان يزرعها فى مزرعته، مثل الخشخاش Poppy، والعشبة Smialx، واليبروح Mandrgora، وخانق الذئب Aconite ... وغيرها.

وكان لأبولو أختا (توأم) تدعى أرتمس Artemis، ملكت معه القدرة على شفاء المرضى[2]، وقد وهب أبولو وأرتمس فن الطب والدواء إلى قنطريوس أوشيرون القنطارى[3] Centaur Chiron، الذى نبغ فيه بفضل الالهة، مما جعل أبولو يوكل إليه مهمة تعليم البطل جازون Jason والفارس أخيل Achilles، وكذلك اسقليبيوس Asculapius ابن أبولو من الحورية كورونيس Coronis، ذلك الطبيب العظيم الذى حكت عنه الأساطير أنه بلغ فى شفاء الامراض حداً إلى الدرجة التى معها قد استغاث بلوتو Pluto أله الموت والإرض السفلى بزيوس Zeus كبير الالهة، زاعماً أن اسقليبوس قد قلل من عدد الموتى الوافدين اليه، فاستجاب زيوس لطلب بلوتو، وأرسل على اسقليبوس عاصفة شديدة أودت بحياته.

وقد بلغ اسقليبوس – بعد موته – مكانة عظيمة عند اليونانيين رُفع معها إلى مصاف الالهة على حسب الأساطير، وان كانت ثمة دلائل تشير إلى أنه كان كائناً بشرياً كزميله امحوتب فى مصر[4].

فقد قدسه اليونانيين هو وابنتيه هايجيا Hygeia ربة الصحة وباناسيا Panacea ربة الشفاء إلى أن ضمت أسماؤهم مع أبولو فى قسم ابقراط الشهير الذى جاء مبتدءاً بما يلى:

I swear by Apollo the physician and Asculapius. Hygeia. Panacea all the Gods and all the Godesses that.

اقسم بأبولو الحكيم وبأسكليبوس، وهايجيا، وباناسيا، وبكل الأرباب والربات على ....

وقد راجت وأزدهرت تعاليم اسقليبوس فيما بعد فى عدد كبير من المعابد اليونانية التى شيدت على سفوح الجبال وقمم التلال، واتخذت اسم الاسقولابى As-clipieia، والتى عُد منها فى العالم اليونانى نحو 320 معبداً، واشتملت طقوس هذه التعاليم على اغتسال الطُهر، وحضانة روحية تتجلى فيها للمريض رؤى يساعد تعبيرها على شفائه مما ألم به»[5].

وقد كان يعتقد فى البداية أن الشفاء بنومة الهيكل إنما يتم بمعجزة تحل بجسد المريض فى الليلة الوحيدة التى يقضيها فى الهيكل[6] ، «ثم رؤى شيئا فشيئا أن التداوى يحتاج إلى إقامة أطول والاستحمام فى حمامات خاصة ، والرياضة، وألوان أخرى من العلاج، تشبه ما يتبع اليوم فى المصحات ومدن الاستقساء إلى حد كبير»[7].

إلا أن هذه العلاجات كانت أقرب إلى الممارسات النفسية منه إلى استخدام العقاقير والجراحة، وذلك لأن الغالب فى هذه المعابد قلما يخرج عن إتباع ما يمليه الكهنة من النصائح والإرشادات. وهذا يشبه بوجه من الوجوه ما يقوم به الطبيب أو الاخصائى النفسى فى العلم الحديث.

أما المعلومات اليونانية الأساسية فى العقاقير، فقد تجمعت على مدار قرون طويلة على يد جامعى الأعشاب ومقتلعى الجذور Rhizotomoi. فقد عُرف عدد عظيم من النباتات والأعشاب، وعُرفت بعض منافعها بفضل عشابين محترفين تقيدوا فى عملهم بطقوس خرافية معهودة.

وبينما كان أصحاب المعابد الاسقلوبية يزدادون علماً بطاقة الإنسان على الدفاع النفسانى ضد المرض، ومقتلعوا الجذور مستمرون فى عملهم، أخذ عدد من المدارس الفلسفية التى ظهرت فى جنوب ايطاليا وصقلية، وأيونية، وثريس فى استنباط النظريات.

فلقد ظهرت فى بلاد اليونان حركة فلسفية منذ بداية القرن الثامن ونهاية القرن السادس ق.م، وقد عُرف باعثوها باسم الفلاسفة الأيونيين Ionian Philosophers. وكان الطب ضمن أبحاث هؤلاء الفلاسفة الذين اقتبسوا معظم مبادئ فلسفاتهم من بلاد الشرق وخاصة مصر(8).

فجاءت التعاليم الروحية المختلطة بالآراء العلمية والنظريات الرياضية من جنوب ايطاليا وبالتحديد من مدينة كروتون على يد فيثاغورث Pythagoras (580 - 489 ق.م) الذى رأى فى الكون حالة من الانسجام العددى(10)، وهى الفكرة التى اقتبسها عنه ابقراط فيما بعد فجعلها أساساً لنظريته فى الأيام الحرجة للأمراض وقوة الطبيعة على الشفاء(11).

ويقوم الطب الفيثاغورى فى مجمله على فكرة التناسب بين الأضداد، فإذا كان الجسم يتركب من الأخلاط الأربعة: الحار والبارد واليابس والرطب، فعلى الطبيب أن يهيئ أفضل مزيج بينهم(9).

وإذا كان فيثاغورث قد زاول الطب بعض وقته، إلا أن أكبر طبيب يونانى عُرف قبل أبقراط كان الكيمون الأقروطونى Alcmaion of Croton، أحد أتباع المدرسة الفيثاغورية، ومن أوائل الذين درسوا تركيب الجسم الانسانى عن طريق التشريح، وأول من أدرك أن الدماغ هو مركز الحواس، وقد تعقب مسار العصب البصرى من المخ إلى العينين، وقال بإن الصحة أو العافية هى ضرب من التوازن بين القوى، أو الانسجام Harmony التام بين عناصر الجسم. والشفاء هو الانتقال مرة أخرى من حالة الخلل التى اعترت الجسم إلى حالة التوافق أو الانسجام، وهذه النظرية قد اعتمد عليها ابقراط فى وضع نظريته فى الأخلاط.

وقد تبع الكيمون فى هذه الآراء كل من أفلاطون Plato، وابقراط وخالفه أرسطو Aristotle، وزينون Zeno زعيم المدرسة الرواقية Stoics اللذان ذهبا إلى أن القلب لا المخ هو مركز الحواس.

ويعتبر كتاب «فى طبيعة الانسان On Human nature» هو أهم ما خلفه الكيمون من مؤلفات، حيث ظل لمدة طويلة المرجع الطبى الأساسى قبل أبقراط، فضلاً عن تأثيره العميق على مدرسة قوّ التى انجبت أبقراط[12].

وفى نفس زمن الكيمون عاش فى مدينة صقلية أنباذوقليس Empedocles (490 - 340 ق.م) الذى كان شديد الرغبة فى الطب وعلم وظائف الاعضاء. وقد رُوى عنه أنه طهر مدينة «سلتتم» من الحميات التى انتابتها وذلك عن طريق تجفيف المستنقعات التى كانت تحيط بها، وقام بتبخير مدينة «أجريجنتم» - مسقط رأسه - لمدة عام فقضى على الأوبئة فيها.

ونستطيع أن نلمح فى نظرية أنباذوقليس الفلسفية بعض الملامح الكيمائية والطبية، حيث ذهب إلى أن أصل الكون يرجع إلى عناصر أربعة هى الماء، والهواء، والتراب، والنار، وهذه العناصر لا يتحول أحدها إلى الآخر[13]. وكل عنصر لا يمكن تقسيمه، والأجسام تنشأ من امتزاج تلك العناصر الأولى بنسب مختلفة، ويخضع هذا الامتزاج أو التجمع للجاذبية أو النفور «وهاتان النظريتان، ونظرية العناصر الأولى التى لا يمكن تقسيمها، ونظرية التجاذب أو النفور، نجد فيها أصول الكيمياء الحديثة، كما نجد أن تحديد الأركان بأربعة يعتمد علي قداسة هذا الرقم عند الفيثاغوريين، وهو أساس تقسيم الأخلاط إلى أربعة أيضاً، ذلك التقسيم الذى ساد الفكر الطبى حتى العهد الحديث»[14].

وكانت أيونيا (اسيا الصغرى) هى المهد الثالث للبحث النظرى فى الطب بفضل أُناس من أمثال أنكسيمانس وانكساغوراس (500 - 428 ق.م) وهيرقليطس (540 - 475 ق.م). وكان هؤلاء علماء فى الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، وذلك استناداً إلى أن نظرياتهم الكونية[15] كانت ذات صلة طبيعية بشئون الأحياء فى عالم الطبيعة. هذا فضلا عن قيام انكساغوراس ببعض العمليات التشريحية[16].

ومن مدينة ثريس جاءت المؤثرات الأخيرة - قبل الأبقراطية - على يد اثنان

أولهما: هيروديقوس السلمبرى Herodicos of Selymbria، معلم ابقراط - فيما يقال - والذى لاحظ ضرورة الموازنة بين النشاط الجسمى، والتقنين الغذائى، ولهذا فقد علق أهمية كبيرة على الالعاب الرياضية. وهذه أحدى نظريات أبقراط الاساسية.

والثانى: هو ديمريطس الأبدرى[18] Democits of Abdera (470 - 361 ق.م) والذى عرفه ابقراط معرفة شخصية، فهناك بعض المراسلات التى جرت بينهما (وان لم تثبت نسبتها بعد) فى الخلل العقلى، وكيفية مداواته بالنبات الطبى المعروف بالحريف الاسود.

لكن من الثابت أن ديمقريطس كان شديد التعلق بما يمكن أن يسمى بتعبير حديث «الطب الروحانى الجسمانى»، وقد كان هذا الطب أقوى الفروع فى الدراسات اليونانية»، ولا سيما وأن هذه الدراسات قامت تحت مظلة الحضانة الروحية التى تنتمى إلى المعابد الاسقولابية، وكذلك الفلسفة[19].

وبعد هذه الجولة القصيرة فى المدارس الفلسفية اليونانية بغرض تتبع تطور الحركة الطبية فيها، يتبين أن كل هذه المدارس قد درست الطب من خلال بحثها العام عن الحقيقة، وفى تلك الاثناء فمن الطبيعى أن ترتكب أخطاء بالبداهة، وان كان هذا لا يمنع أنها قد أصابت فى بعض الاحيان.

لقد كانت السمة البارزة فى المنهج اليونانى لدراسة الطب قبل أبقراط، هى قلة الملاحظة الدقيقة للأمراض وذلك فى مقابل شيوع المنهج الجدلى والبراعة الفلسفية حول طبيعة هذه الأمراض. وكان من نتيجة ذلك أت بُنيت أضخم النظريات الطبية على أساس تافه من الحقائق، وليس أدل على ذلك من قول الكيمون العظيم بأن الماعز تتنفس من آذانها، وذلك رغم ما وصل إليه علمه من التشريح[20].

ومع هذا، واستناداً إلى بعض محاولاتهم الصحيحة، يمكن اعتبار هذه المدارس الفلسفية هى الشيعة العلمية للطبيب اسقليبوس، وذلك فى مقابل الشيعة

الدينية، هؤلاء الذين اكتفوا فى ممارساتهم الطبية بنومة الهيكل، فستقلوا تمام الاستقلال عن هذه المدارس الفلسفية.

وفى نهاية هذه الفترة المدرسية، بدء التفكير الطبى اليونانى يبلغ مرحلة النضوج وذلك بفضل من لُقب بأبى الطب والأطباء، وهو أبقراط.

ابقراط هو بلا نزاع من أعظم أطباء العالم فى التاريخ. وقد سماه العرب «أبو الطب» ورفعوا نسبه إلى عائلة اسقليبوس، ولا يتردد إبن ابى أصيبعة الذى خصص له ترجمة طويلة[21] فى تاريخه ان يشير إلى ما كان عليه من التأييد الإلهى[22].

قال عنه صاحب الفهرست[23]: وحيد دهره، الكامل الفاضل المبين المعلم لسائر الأشياء الذى يضرب به المثل، الطبيب الفيلسوف. وهو السابع من الثمانية الذين من اسقليبوس الأول مخترع الطب على الولاء، وجالينوس الثامن[24]، وإليه انتهت الرياسة.

ولد أبقراط فى جزيرة قوص Cos عام 460 ق.م، وهى جزيرة صغيرة من الجزائر اليونانية فى القرن الخامس ق.م. وكان الطب فى هذا الزمن لا يزال فى أيدى أناس تنقصهم الروح العلمية، فكثيراً ما يلجئون إلى السحر والشعوذة، مستغلين سذاجة المرضى. وكان ابقراط متضلعاً فى العلوم الطبيعية فأدخل الطب فى إطار علمى مستغلاً الفحص الأكلينيكى Clinical Observation، والاستنتاج المنطقى السليم[25]. وذلك يتضح فى كثير من مؤلفاته، وأهمها[26]: كتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة، وكتاب الأمراض الحادة، وكتاب الجبر والخلع، والأخلاط، وكتاب القروح وجراحات الرأس، وكتاب المياه والأهوية.. إلى غير ذلك مما سيذكر بعد بشيئ من التفصيل.

وقد شهد كل من أفلاطون وأرسطو بعظمة أبقراط[27]، فتحدث أفلاطون (وكان معاصرا أصغر لابقراط) فى محاورة بروتاغوراس Protagoras عن شاب قصد إلى أبقراط طبيب قوص ليأخذ عنه علم الطب. وفى محاورة فيدروس Phaidros يناقش ناحية من التعليم الابقراطى، وهى الحاجة إلى فهم الطبيعة

تمهيداً لتفهم جسد الانسان ونفسه. كما تحدث أرسطو فى كتاب السياسية عن مهارة أبقراط الطبية.

وأول حكمة من حكم أبقراط، حكمة مشهورة جاء فيها[28]: إن الحياة قصيرة، والفن خالد، والفرصة طيارة، والتجربة خداعة، والحكم على الاشياء عسير. وثمة أقوال أخرى تتجلى فيها فطنة ابقراط وقوة ملاحظته منها ما يلى:

1- الجسد يعالج على خمسة أضرب: ما فى الرأس بالغرغرة، وما فى المعدة بالقيئ، وما فى البدن بالإسهال، وما بين الجلد بالعرق، وما فى العمق وداخل العروق بإرسال الدم[29].

-- أربعة تهدم البدن: دخول الحمام على الشبع، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء على الريق[30].

3- قال لعليل: أنا وأنت والعلة ثلاثة، فإن اعنتنى بالقبول، غلبنا العلة، لان الإثنين يغلبان الواحد[31].

4- عندما تتحرج الأمور، أو ينعدم الأمل فى حياة المريض، فلا تحاول تحريك الأمعاء أو ابتداع علاج جديد سواء أكان مسهلاً أم منبهاً، ودع المقادير تجرى كما تشاء.

5- المسنون بصفة عامة أقل اعتدالاً من الشبان، ولكن الأمراض المزمنة التى كثيراً ما تصيبهم لا تفارقهم قط.

6- ضخامة الهيكل فى الشباب زينة ولا عيب فيها، ولكنها فى الشيخوخة متعبة وأسوأ عقبى من القوام النحيل.

7- نفث الدم من الرئة يتلوه نفث الصديد[32].

- مؤلفات ابقراط:

قال «ليتريه» إن مؤلفات أبقراط تبلغ الاثنين والسبعين، وقد عدّ العرب منها

ثلاثين أصلا، والتى أوصوا بدراسته لمن يقرأ صناعة الطب اثنى عشر كتاباً. وقد ذكر الأب قنواتى[33]أن عدد كتب أبقراط يتراوح بين 72، و 76 كتاباً فى 53 موضوعاً، أطلق عليها مؤرخو تاريخ الطب «المجموعة الابقراطية Corpus hippocraticum»، وقد نشرت نشرة علمية وترجمت إلى اللغات الغربية والإنجليزية والالمانية. وكان لهذه المجموعة شأن كبير عند أطباء العرب، فترجموا معظمها مع تفسير جالينوس لها فى الغالب، إما ترجمة مباشرة إلى العربية، أو بواسطة السريانية. يقول إبن أبى أصيبعة[34]: «والذى انتهى إلينا ذكره ووجدناه من كتب ابقراط الصحيحة يكوّن نحو ثلاثين كتاباً، والذى يدرس من كتبه لمن يقرأ صناعة الطب إذا كان درسه على أصل صحيح، وترتيب جيد اثنا عشر كتاباً، وهى المشهورة من سائر كتبه. وسنكتفى بذكر هذه الكتب الأثنى عشر مع مختصر مضمونها[35]:

الكتاب الأول: كتاب الأجنة: On The Foetus

المقالة الأولى: تتضمن القول فى كون المنى.

المقالة الثانية: تتضمن القول فى كون الجنين.

المقالة الثالثة: تتضمن القول فى كون الاعضاء.

الكتاب الثانى: طبيعة الانسان On The Nature of man

وهو يتضمن القول فى طبائع الBبدان ومن أى شيئ تركبت (مقالتان).

الكتاب الثالث: كتاب الأهوية والمياه والبلدان On airs. waters. and places

المقالة الأولى: كيف تتعرف أمزجة البلدان وما تولد من الBمراض البلدية.

المقالة الثانية: كيف تتعرف أمزجة المياه المشروبة وفصول السنة وما تولد من الأمراض البلدية.

المقالة الثالثة: كيفية ما يتبقى من الأشياء التى تولد الأمراض البلدية كائنة ما كانت

الكتاب الخامس: تقدمة المعرفة The book of Prognostics

ثلاث مقالات وضمنه تعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على أحوال مرض مزمن فى الأزمان الثلاثة الماضى والحاضر والمستقبل.

السادس: كتاب الامراض الحادّة Regimen in acute diseases

المقالة الأولى: تتضمن القول فى تدبير الغذاء والاستفراغ فى الأمراض الحادة.

المقالة الثانية: تتضمن المداواة بالتكميد والفصد وتركيب الأدوية المسهلة ونحو ذلك.

المقالة الثالثة: تتضمن القول فى التدبير بالخمر وماء العسل والسكنجبين والماء البارد والاستحمام.

السابع: كتاب أوجاع النساء.

مقالتان ضمنه أولاً: تعريف ما يعرض للمرأة من العلل بسبب احتباس الطمث ونزيفه، ثم ذكر ما يعرض فى وقت الحمل وبعده من الاسقام التى تعرض كثيراً.

الثامن: كتاب الأمراض الوافدة ويسمى أبيديميا On The Epidemics

وهو سبع مقالات ضمنه تعريف الأمراض الوافدة وتدبيرها وعلاجها.

التاسع: كتاب الأخلاط On The Humours

وهو ثلاث مقالات ، ويتعرف فيها كمية الأخلاط وكيفيتها ، وتقدمة المعرفة بالأعراض اللاحقة بها ، والحيلة والتأنى فى علاج كل واحد منها.

العاشر: كتاب الغذاء On The Nutriment

وهو أربع مقالات ويستفاد من هذا الكتاب علل وأسباب ومواد الأخلاط، أعنى علل الأغذية وأسبابها التى بها تزيد فى البدن. وتنميه وتخلف عنه بدل ما انحل منه.

الحادى عشر: كتاب قاطيطريون، أى حانوت الطبيب

The Physician's Establishment

وهو ثلاث مقالات ويستفاد من هذا الكتاب ما يحتاج إليه من أعمال الطب التى تختص بعمل اليدين دون غيرها من الربط والشد والجبر والخياطة ورد الخلع والتنطيل والتكميد وجمع ما يحتاج إليه.

الثانى عشر: كتاب الكسر والجبر On Fractures

وهو ثلاث مقالات.

كان هذا تحليلاً مختصراً لأهم كتب أبقراط، والتى كان يعوّل عليها فى دراسة الطب، بيد أن اشهر رسائل أبقراط على بكرة ابيها، هى قسمه المشهور الذى ظل رمزاً للاخلاق الطبية الراقية وارتفاعها عن الاندماج فى الشبهات التجارية، فأصبح هذا القسم أهم وثيقة طبية خلدت على مدى العصور حتى غدت دستوراً يقرن الطب بالأخلاق. وقد سمى العرب هذا القسم «عهد أبقراط» وترجمه حنين بن اسحق، وعرفه العالم الاسلامى ممتزجاً بالروح الاسلامى، بعد ان حذف منه بعض التعبيرات الوثنية.

عهد ابقراط[36] **Theoath of Hippocrates** أقسم بأبولو Apollo (أله الطب) الحكيم، وبأسكليبوس Aesculappius، وهايجيا Hygeia (ربة الصحة)، وباناسيا Panacea (ربة الشفاء)، وأشهد كل الارباب والربات على أن أبقى قدر استطاعتى محافظاً على القسم الآتى:

ان أعتز أشد الإعتزاز بمن علمنى هذا الفن مثلما اعتز بوالدىّ، وان أظل مطيعاً له ما حييت، وان أقتسم معه ما لدىّ من مال متى كان ذلك لازماً، وأن أعنى بأبنائه كأخوتى، وأن أعلمهم هذا الفن متى رغبوا دون أجر أو وعد مكتوب، وأن ألقن علمى لأبنائى وأبناء أستاذى الذى علمنى قواعد المهنة، وأن أبلغ تلاميذى - وحدهم دون غيرهم - الذين التحقوا بهذه المهنة نصائحى وارشاداتى،

وأن أصف الدواء الناجح لمرضاى حسب قدرتى، وألا أضر أحداً، وليس من أجل إرضاء أحد أصف دواءً مميتاً، ولا أعطى إمرأة «لبوساً» يسبب الإجهاض، وإنما أحافظ على طهارة حياتى ومهنتى، وإلا أشق عن من فى مثانته حصى، وإنما أترك ذلك ليقوم به المتمرسون (الاخصائيون)، وألا أدخل أى بيت إلا لصالح المرضى، وأن أتجنب أى فعل سيئ وبخاصة ما يتصل بعشق النساء أو الرجال الاحرار منهم أو العبيد، وكل ما يصل إلى علمى أثناء ممارسة مهنتى أو خارجها أو فى اتصالى اليومى للناس مما لا يجوز اذاعته فإنى احتفظ به سراً مكنوناً.

وحين أبقى وفياً لهذا القسم محافظاً عليه فسأستمتع بحياتى وأبقى سعيداً بمهنتى، وموضوع احترام وتقدير كل الناس فى كل الأوقات، أما إذا انحرفت عنه وحنثت به فسيكون حظى بخلاف ذلك.

وهناك فقرة من القسم أثارت جدلاً حول طابع القسم اللاهوتى، وهل كان الغرض منه الاحتفاظ بالطب على أنه مذهب سرى مقصور على بعض المريدين، وهى الفقرة: «وأن ألقن علمى لأبنائى وأبناء استاذى الذى علمنى قواعد المهنة، وان ابلغ تلاميذى وحدهم دون غيرهم الذين التحقوا بهذه المهنة نصائحى وإرشاداتى».

وإذا كان من الصعب البت فى تلك المسألة لضياع الصورة الأصلية، ولما اعتراها من التبديل والاضافة على يد المدارس المتتابعة والكنائس المختلفة، فان هذه السرية تبدو كأنها من آثار الطقوس الفيثاغورية وغيرها من المذاهب السرية فى هذا العصر. ومع ذلك فان الروح العالية المنزهة التى تسود فقرات القسم تظهر دون شك المكانة السامية التى أحل فيها أبقراط مهنة الطب، كما أن تعهد من يؤدى القسم بعلاج المرضى دون الالتجاء إلى أى اجراء لاهوتى أو كهنوتى يبرهن على وجود فئة – حتى قبل أبقراط – من الأطباء الأحرار فى ممارسة مهنتهم لا يخضعون إلا لقوانين وآداب مهنتهم التى أخذوا على أنفسهم بها[37].

أما عن منهج أبقراط الطبى، فقد أوضحت مؤلفاته ذلك، حيث نجد أن ثمرته

الرئيسية هى إدخال الاعتبار والمنهج فى شفاء الأمراض، وإليه يرجع السبق فى إنشاء الأدب الطبى العلمى، ووضع أول الوثائق الإكلينيكية. ومع أنه كان معنياً بعلاج المرض عامة منه بأمراض خاصة، فانه ترك لنا صوراً إكلينيكية لمرض السل، والتشنج، والصرع، كما سجل الملامح المعتادة التى تعلو سحنة المحتضر أو الميت، ووجه من أهزله الجوع أو أعياه الاسهال أو أسقمه الألم، واستمرار المرض. ولا تزال هذه المظاهر تعرف بالوجوه الابقراطية Facies Hippocratica.[38] وهناك ما يعرف بالأصابع الأبقراطية[39] Fingers Hippocratica، وهى أعراض خاصة ببعض أمراض القلب المزمنة، إذ تتضخم مفاصل الأطراف حتى لتغدو كالنبابيت، وذلك لعدم استكمال احتراق الاكسجين فى الجسم.

ويكثر فى كتابات ابقراط، الوصف والملاحظة اللذان يتجلى فيهما مدى الشوط البعيد الذى قطعه الطب فى هذا الأمد القصير. وفيها نرى كيف يستطيع الطبيب بوضع أذنه على صدر المريض أن يتبين خضخضة السوائل فيه، وصوت أغشيته محتكاً بعضها ببعض عندما تصاب بالتهاب جاف، كأنه صرير الجلد المضغوط. كما ترى كذلك آثار المناخ فى أى بلد على سكانه، أو كما يقول أبقراط: «حيث يشتد الطقس ويعنف، يقسو الناس ويصبحون أشد ميلاً للعناد والاستقلال»[40].

وفى رسائل أبقراط كثير من القواعد الجراحية السليمة، وفيها فصول عن كسور العظام وانخلاع المفاصل، كما أن التعاليم الخاصة بتربنة الجمجمة مذكورة فيها بإسهاب. ومن هذه التعاليم قوله: «عندما تترين الجمجمة، انزع آلة التربنة وضعها فى الماء البارد بين الحين والحين، فإنك إن لم تفعل حميت الآلة من حركتها الدائرية، فسخن العظم وجف وقد تحترق قطعة منه حول مكان التربنة فتنفصل»[41].

وتحتوى رسائل أبقراط كذلك على التاريخ المرضى لبعض مرضاه مع وصف دقيق للعلة، لا يوجد له نظير فى مؤلفات الطب حتى عهد الرازى. وهاك

وصفه لإحدى الحالات التى ورد ذكرها فى كتابه الأوبئة Epidemics، حيث يبين أنه ما من كلمة تعد حشواً فى الموضوع : «ان زوجة دلرسيس فى تاسوس ألزمها المرض الفراش، ونزل بها مكروه فأصابتها حمى عنيفة صاحبها رعشة شديدة. وكانت أول الأمر تلتف جملة، ثم تأخذ فى تحسس الأشياء، وتعبث بكل ما تقع عليه يدها، فتجذب الأشياء، وتخدش وتقلع الشعر، وتبكى ثم تضحك، ولم تكن تنام، مع أن الأمعاء عولجت بالمسهلات ولم تخرج شيئا، وكانت تشرب يسيراً لان المساعدين الملازمين يشيرون عليها بذلك. وكان البول رقيقاً وقليلاً، والحرارة قليلة الارتفاع فى اللمس. والبرودة بادية فى الأطراف. وفى اليوم التاسع: أصابها شرود عقلى كبير، تلاه وعى وصمت. وفى اليوم العاشر: تنفس خفيف وعميق فى فترات طويلة ثم قصيرة بعد قليل.

وهذا التنفس الموصوف يعرف اليوم لدى طلبة الطب بـ «النبض المتحول»[42].

وبالجملة فان مزايا عبقرية أبقراط العلمية تتجلى فى ملاحظاته الدقيقة، وأحكامه المعتدلة، وحبه للحق، وبصورة غير مباشرة فى رفضه للخزعبلات والأباطيل الفلسفية والخطابة[43].

الانتقال إلى الاسكندرية:

وقد عاش أبقراط عمراً طويلاً يتلاءم مع حكمته وخبرته، وتوفى عام 370ق.م. وتبعه إبناه «تسالدس» و«دراكو» وصهره «بوليبوس»، وكذلك «كرايتوديموس» طبيب الاسكندر الاكبر الذى أنقذ حياته بنزعه سهماً قد أصابه أثناء حملاته. وقد ظلت مدرسة أبقراط محافظة على مكانتها العلمية الرفيعة إلى درجة أن امراء الشرق كانوا يتخيرون أطباءهم من بين اتباعها.

ثم ظهر أفلاطون الفيلسوف وأقحم نفسه على الطب، وأخذ يفرق بالجدل الفلسفى بين نظريتين، احداها القائلة بأن الجسم يكيف الذهن، والأخرى الآخذة بأن الذهن يعين الجسم(44).

إلا ان أعظم ذرية أبقراط وخلفاءه هو «أرسطاطاليس» الذى ولد سنة 384ق.م، وكان ابناً لطبيب مقدونى من الأسكولابيين، وتتلمذ على أفلاطون فى أثينا، ثم أصبح معلماً للملك الشاب الاسكندر الاكبر، ومات سنة 322 ق.م بعد بضعة أشهر من موت الاسكندر بالحمى فى بابل.

ورغم أن أرسطو لم يكن طبيباً. فان له فضلاً عظيماً على علم الطب، إذ كان أحد العلماء المبرزين، الذين شهدهم العالم فى جميع العصور. وكانت أكثر دراساته فى علم البيولوجيا، أى علم الحياة، وله على المعارف الحديثة كثير من الالاء. ولقد صدق داروين عالم الطبيعة فى القرن التاسع عشر حين قال: «إن كل علماء الحياة الجدد ليسوا أكثر من تلاميد لأرسطو»(45). فلقد درس أرسطو معدة الحيوانات المجترة، ووصف حياة النحل، وذكر ملكة الخلية، واستعمل البيض فى دراسة علم الأجنة كما هو الحال فى الوقت الحاضر، وكتب عن الصحة العامة والطب الاجتماعى والتشريح والوراثة والتحليل النفسى. وقليل ما هم الافراد الذين أتوا مثل هذا التعطش إلى المعرفة، أو بلغوا مثل هذا المبلغ فى إطفاء تعطشهم هذا إلى استكناه حقائق الأمور(46).

وبعد مضى زمن على أبقراط، أصيبت تعاليمه بالجمود، واستقرت فى قضايا

صلبة، حيث اكتفى الأطباء بمحاولة تفسير النصوص، أما جوهر طريقة أبقراط، وهو الملاحظة الحرة الطليقة، والبحث عما يفيد المرض، فقد أصبح شيئاً ثانوياً لا يبالى الأطباء به[47]. فنهضت مدرسة الاسكندرية التجريبية Empirical School ضد هذا التيار العقلى المتزمت، وقالت إنها لا تهتم بعلل الأمراض، كما تهتم بعلاجها، «فليس المهم أن نعرف ماهية الهضم، بل ما هو سهل الهضم»[48]. وذلك ما سوف نتتبعه فى الفصل القادم.

هوامش ومراجع الفصل السادس

(1) Garrison (Fielding): Introduction to the History of medicine. London. 4th edition 1929. p 83.

(2) راجع، التيجانى الماحى: مقدمة فى تاريخ الطب العربى، م.س، ص 20 ، 21 .

(3) قنطريوس: حيوان اسطورى له رأس حصان وجذع انسان.

(4) راجع: جورج سارتون: تاريخ العلم والانسية الجديدة، ترجمة اسماعيل مظهر، دار النهضة العربية 1961 ص 141، وايضا جوزيف جارلند: قصة الطب ترجمة د. سعيد عبده، دار المعارف بمصر بدون تاريخ ص 36.

(5) جورج سارتون، تاريخ العلم م.س ج2 ص 216 .

(6) فى وصف ما كان يحدث فى هذه الهياكل من طقوس، انظر التيجانى الماحى، مقدمة.. م.س ص 21، 2.

(7) جوزيف جارلند، المرجع السابق ص 37 .

(8) Garrison (F), Introduction to the History of medicine. Review, p 87.

(9) أحمد فؤاد الأهوانى، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء لكتب العربية، بيروت 1954 ، ص 87 .

(10) راجع أ.د محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفى ج1 «الفلسفة اليونانية» دار المعرفة الجامعية 1993 ص 55، 61 .

(11) جوزيف جارلند قصة الطب م.س ص39 .

(12) راجع: بول غليونجى م.س، ص 15 .

(13) راجع د. محمد على أبو ريان، م.س، ص 86 .

(14) بول غيلونجى، م.س، ص 14 .

(15) قال انكسيمانس بإن أصل الوجود هو الهواء، وقال انكساغوراس باتصال وانفصال الجواهر الموجودة بالفعل، وقال طاليس بالماء، وهرقليطس بالتغير وعدم الثبات. راجع د. محمد على أبو ريان م.س، ص 48، 66، 89.

(16) راجع جورج سارتون، تاريخ العلم 220/2 - 221.

(17) نسبة إلى مدينة «سلمبريا» على الشاطئ الشمالى لبحر مرمرة.

(18) نسبة إلى مدينة أبديرا فى ثريس من أعمال تراقيا.

(19) راجع، سارتون، تاريخ العلم 222/2.

(20) راجع، جوزيف جارلند م.س، ص 40، 45.

(21) عيون الأنباء. ص 43، وبعدها.

(22) الأب جورج قنواتى، تاريخ الصيدلة.. م.س، ص 77.

(23) ابن النديم، الفهرست، ص 400.

(24) انظر اسماء هؤلاء الثمانية فى الجزء الخاص بجالينوس من هذا الكتاب فيما سبق.

(25) قنواتى، المرجع السابق، ص 77.

(26) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص 16.

(27) جورج سارتون، تاريخ العلم، جـ 2، ص 226.

(28) جوزيف جارلند، قصة الطب، م.س، ص 46.

(29) الشهرزورى، تواريخ الحكماء، ص 350.

(30) المرجع السابق، ص 350.

(31) نفس المرجع، ص 352.

(32) الارقام من 4: 7 نقلاً عن جوزيف جارلند، قصة الطب، ص 47، 48.

(33) بول غليونجى، ابن النفيس، م.س، ص 28.

(34) تاريخ الصيدلة والعقاقير، ص80.

(34) عيون الأنباد ، ص45 .

(35) قنواتى، ص 81 -83.

(36) نقلا عن د. أحمد صبحى، فى فلسفة الطب، ص 165 ،166 ، والقسم فى صيغته العربية وفقاً لترجمة حنين بن اسحاق قد أورده ابن أبى أصيبعة فى عيون الانباء ص 45 وهو يبتدء هكذا: «انى اقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج ... الخ» .

(37) بول غليونجى، ابن النفيس، م.س، ص 29 - 30.

(38) سارتون، تاريخ العلم، جـ 2، ص 240. ويقول جوزيف جارلند: وكان شكسبير يدرك هذا الوجه الابقراطى وقد ضمنه وصفه لموت فالستاف فى مسرحيته عن هنرى الخامس، فقال: «عندما رأيت يده تعبث بملاءة السرير وتلعب بالزهور، ورأيته يتأمل أنامله بأسماء، أدركت أن حينه قد حان، فقد كان أنفه مرهفاً كالقلم، وكان يهذى عن مروج خضراء» .

(39) سارتون جـ2، ص 241.

(40) جوزيف جارلند، قصة الطب، ص 48.

(41) المرجع السابق، ص 49.

(42) سارتون جـ 2، ص 241.

(43) نفس المرجع، ص 238.

(44) بول غليونجى، م.س، ص 32.

(45) جوزيف جارلند، قصة الطب، م.س، ص 51.

(46) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(47) بول غليونجى، المرجع السابق، ص 34.

(48) جارلند، المرجع السابق، ص 86.



الفصل السابع

طب مدرسة الاسكندرية



كان دخول الاسكندر الاكبر مصر وآسيا فى القرن الرابع ق.م بداية لعصر جديد، إذ انتقلت معه الحضارة الأغريقية، متخذة من مدينة الاسكندرية التى أنشئت سنة 332ق.م مركزاً لها[1]. ولا يخفى علينا ما كان لهذه المدينة من الأهمية، من حيث أنها كانت نقطة الالتقاء بين كل الشعوب والحضارات سواء فى العلم والحضارة، أم فى التجارة.

أما عن مدرسة الاسكندرية القديمة، فانها ترجع إلى عهد بطليموس الأول[2]، إذ تُعد هى من أشهر أعماله، حيث «جمع فيها علماء اليونان، وأجرى عليهم المرتبات وأشار عليهم بخدمة العلم وتنمية موارده، فكانت أجمع دار علم للعلماء، لم يأت قبلها ولا بعدها مثلها. وقد زاد فى عنايته، فجمع للعلماء مكتبة لم تتفق قبله وبذلك صارت الاسكندرية مركز العلم الوحيد فى العالم»[3]. بفضل علمائها العظماء من أمثال: أقليدس، وأرشميدس، وغيرهما، وما توصلوا اليه من كشوف فى الرياضيات، والفلك والجغرافيا.... الخ.

أما عن الطب، فقد عاد «تحت ظل البطالمة من اليونان إلى موطنه الأول بمصر»[4]. وكان أشهر من نبغ فى الطب بالاسكندرية فى ذلك الوقت، طبيبان عظيمان هما:

1 – هيروفيلوس الخالكيديسى[5] Herophilus (300 ق.م) ذلك الذى يُعد مؤسس التشريح النظامى، حيث دلت كشوفه الكثيرة على أنه قام بفحص لتركيب الجسم البشرى كله، وذلك من خلال ما أُتيح له من عدد كاف من الجثث مع حُرية تشريحها، فهو «أول مشتغل بالتشريح العلمى، وأعتبرت مشاهداته كأنها كتاب جامع فى علم التشريح»[6].

ومن مآثر هذا الرجل – على حسب جالينوس – أنه قد قدم وصفاً مفصلاً للدماغ، وميز بين المخ والمخيخ، كما ميز بين أوتار العضلات وبين الأعصاب، وأطلق على الاعصاب أسم (أعصاب الحس). وقد فرق بوضوح بين الشرايين والأوردة، ذاهباً إلى أن الشرايين أسمك من الأوردة بست مرات. كما قدم وصفاً

لكل من العين، والأثنى عشر Doudenum، والكبد، والغدد اللعابية، والبنكرياس، والبروستاتا، وأعضاء التناسل[7].

وقد أدخل هيروفيلوس تحسيناً على طريقة براكساجوراس فى فحص النبض بابتكاره ساعة مائية لقياس سرعته، وعد ضرباته.

يقول بول غيلونجي: وربما يكون هيروفيلوس قد اقتبس هذا الابتكار من التعاليم السرية لأطباء الفراعنة[8].

وقد اخترع هيروفيلوس أيضاً آلة استعملها المولدون لتقطيع الجنين داخل الرحم، وذلك فى الحالات الميئوس منها عند النساء الحبالا. وهو يرى ان حياة الجنين داخل الرحم فيزيقية وليست هوائية، وهذا ناتج عن اعتقاده بأن الشرايين تحوى دماً، وليس هواءً.

2- ارازيستراتوس أليوليسى[9] Erasistratus، وهو يعتبر أول طبيب يرفض نظرية الرطوبات، وأول من فرق بين التدبير الصحى (الوقاية)، وبين التداوى، وعلق أهمية أعظم على الوقاية، لذلك كان ينصح دائماً بمراعاة التغذية الجيدة، والرياضة، والاستحمام. وكان لا يعول كثيراً على فصد الدم، بل عارض الاسراف فيه، كما عارض العلاجات العنيفة، والافراط فى استعمال العقاقير[10]. كما أولى الانسجة والأوعية المحل الأول فى دراسة الأمراض، فشرح الجثث باحثاً عن سبب عضوى بها[11].

وقد جاءت بحوث ارازيستراتوس التشريحية منصبة على الدماغ والقلب، والجهازين العصبى والوعائى. ومن قبيل ذلك انه شاهد لفائف المخ، ولاحظ أنها معقدة لدى الانسان أكثر منه لدى الحيوان. وقام بتتبع الأعصاب الدماغية حتى الدماغ نفسه.

وقد قدم وصفاً صائباً للسان المزمار ووظيفته. ووصف الأذينين والبطينين من القلب، وأعلن عن وجود أتصال بين التشعبات النهائية للأوردة والشرايين[12].

وأهتدى إلى أن كل عضو من أعضاء الجسم يتصل بسائر الأعضاء عن طريق جهاز ثلاثى من الاوعية: شريان، ووريد، وعصب[13].

إلا أن أتباع العالمان المبتكران (هيروفيلوس، وارازيستراتوس) قد اكتفوا باعتمادهم على نصوصهما، وأكبّوا على الجدل العقيم حولها، فلقبوا بالمتعسفين Dogmatists. وقد ثار عليهم بعد ذلك مبتدعو الحركة التجريبية Empiricists، هؤلاء الذين تجردوا من كل تعاليم الطب الفلسفى أو التأملى، وأعلنوا فى مقابل ذلك سيادة التجربة، واعتبارها المصدر الوحيد فى تعلم الطب. وقد امتاز هؤلاء لا - سيما أشهرهم هيراقليطس - بمعرفة فائقة بالعقاقير والسموم.

وقد ظهر فيما بعد النفثيون Pneumatists الذين أرجعوا القوى الحيوية إلى روح حيوى يسرى فى الجسم (النفث)، والتوفيقيون، والأصطفائيون Eclectics الذين أعلنوا عدم تحيزهم لأى مدرسة. وقد برز منهم: رفوس الأفسى، وأريتاكوس، وديوسقوريدس صاحب موسوعة النباتات التى استفاد منها أطباء العرب.

«وفى وسط هذا العالم المتخبط سطع فى القرن الثانى الميلادى نجم عبقرى من أعظم عباقرة البشر»[14]، انه جالينوس.

ولد حوالى 130م[15]، بدء دراسة الطب فى اليونان، ثم فى الاسكندرية، وأظهر نبوغاً فى معهدها[16] فبرع «فى الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية، وهو ابن سبع عشرة سنة، وأفتى وهو ابن أربع وعشرين»[17]، فجدد من علم أبقراط، وشرح من كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه.

لذا أُعتبر جالينوس ثامن الرؤساء المرجوع إليهم فى صناعة الطب[18]، ولقد اشتهر جالينوس بنبوغه فى علم التشريح Anatomy الذى ألف فيه سبع عشرة مقالة فى تشريح الموتى، وكتاباً فى تشريح الأحياء.

وفى عام 162م رحل جالينوس إلى روما، وهناك ألقى العديد من المحاضرات فى التشريح كانت سبباً فى شهرته وقربه من الامبراطور مرقص

أوريليوس Marcus Auralius (161 – 180م) الذى اتخذه طبيباً له[19].

وتعد كتابات جالينوس بمثابة القالب الذى انصب فيه الطب القديم، فلقد شيد بها بناءً متكاملاً من الطب يتفق من جانب مع فلسفته الرواقية Stoics، ومن جانب آخر مع النظرة الغائية Teleological للعالم، تلك التى ترى أن الطبيعة كلها حكمة، وأن كل جزء من أجزاء الجسم البشرى قد خلق لاجل غرض ما، حدد سلفا.

وقد أسس جالينوس نظرياته وتعاليمه على معلوماته الدقيقة التى استنبطها من تشريح الحيوان، وملاحظة وتفحص الجرحى والمرضى وقد لاقت هذه الآراء الجالينوسية تأييداً مطلقاً من الكهنة المسيحيين[20]، ولم يجرؤ أحد على مناقشتها حتى عصر النهضة، إلا النذر اليسير من العلماء[21] خوفاً من رميهم بالجهل والهرطقة[22].

أما عن كتب جالينوس، فهى بحسب الفهرست[23] نحو ثمانية وخمسين كتاباً عدا الكتب الستة عشر المشهورة التى كانت تقرأ على الولاء فى مدرسة الاسكندرية، حيث ذكر إبن ابى أصيبعة أن المختار بن بطلان قال: «إن الاسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة هم: إصطفن، وجاسيوس، وتادريوس، وأكيلاوس، وانقيلاوس، وفلاذيوس، ويحى النحوى... وكان هؤلاء الاسكندرانيون يقتصرون على قراءة الكتب الستة عشر لجالينوس فى موضع تعلم الطب بالاسكندرية، وكانوا يقرأونها على الترتيب، ويجتمعون فى كل يوم على قراءة شيئ منها وتفهمه، ثم صرفوها إلى الجمل والجوامع ليسهل حفظهم لها ومعرفتهم إياها، ثم انفرد كل واحد منهم بتفسير الستة عشر»[24].

ويذكر أبو الحسن على بن رضوان فى كتابه «المنافع فى كيفية تعلم صناعة الطب» أن الاسكندرانيين قد اقتصروا على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس فى التعليم، ليكون المشتغل بها إن كانت له قريحة جيدة، وهمة حسنة،

وحرص على التعليم، فانه إذا نظر فى هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس فى الطب، إلى أن ينظر فى باقى ما يجد من كتبه[25].

وقد تُرجمت معظم كتب جالينوس إلى العربية، فقد كان (أى جالينوس) أحب الأطباء اليونانيين إلى العرب، ومن أشهر تراجمته: حنين بن اسحق[26]، وحبيش الأعسم، وعيسى بن يحى، وإصطفن بن بسيل.

وعلى وجه التقريب فقد توفى جالينوس حوالى عام 200م، وكانت وفاته بمثابة انتصاراً على كل المدارس الطبية المتنازعة فى عصره وذلك بتوحيده للطب بشكل سيطر على الفكر الطبى حتى القرن السادس عشر الميلادى.

وهذا إنما يرجع إلى أنه كان مبتكراً حقاً، وإلى ربطه الطب والفلسفة بأواصر متينة فى عصرٍ كان شديد الولع بالفلسفة، فقد «أقام الطب على نظرية موحدة تفسر كل ظاهرات الصحة والمرض بطريقة تروق للعقل المنظم»[27]. ولقد أخلص جالينوس لهذا الفن إلى الدرجة التى معها ضُرب له المثل القائل: يموت الراعى فى ضأنه موتة جالينوس فى طبه.

ولكن اتباع جالينوس قد نهجوا نهج أتباع كل من أبقراط وتلاميذ هيروفيلوس، وارازستراتوس، فاكتفوا بالنقل والتصنيف. لذا تكاد كتاباتهم أن تكون منقولة عن أصل واحد، خالية من أى نزعة أصالة[28].

ونختتم الحديث عن مدرسة الاسكندرية بالإشارة إلى علمين آخرين ظهرا فى نفس المدرسة، وكان لهما شأن فى بداية الطب العربى الاسلامى، أولهما: هو بولس الأجنطى Paulus Aegineta مؤلف الكتب اليونانية المسماه «كتب الطب السبعة».

والثانى هو أهرن القس الذى وضع كُناش Pandectes كبير بالسريانية ونقله ماسرجيس إلى اللغة العربية[29]. بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

يتضح مما سبق مدى الشوط الكبير الذى قطعه أطباء الاسكندرية فى تقدم

وازدهار هذا الفن، وكفى بما قاموا به من محاولات تشريحية جريئة فى ذلك الزمان الضارب فى جذور التاريخ تدليلاً على ذلك. أليس ما يدعو إلى العجب أن يتم لأول مرة إجراء فحص شامل للجسم البشرى فاق ما قام به أبقراط وتلاميذه من بحوث تشريحية ؟!

لقد كان مسموحاً لعلماء التشريح فى مدرسة الاسكندرية فى ظل حرية دينية تحت اشراف الملوك أن يقوموا بالتشريح متى رأوا ذلك. وكان من نتيجة ذلك أن ظهر عصر ذهبى للتشريح، عظيم القدر إذا ما علمنا أنه ليس هناك ما يقارن به سوى عصر جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى ب.م) الذى يعد نهضة، وعصر فيزاليوس (القرن السادس عشر الميلادى)، وذلك على حد قول سارتون:

لقد كانت الاسكندرية مركز إشعاع للعالم القديم كله، فقد كان جميع العلماء والفلاسفة يتوافدون عليها للإستماع إلى علمائها ومفكريها، ويجرون التجارب العلمية فى معهدها. ولهذا فقد انتقلت الحركة الطبية من الاسكندرية إلى موقع السلطة العلمية فى بغداد، ولاسيما السلطة الطبية خلال العصر العباسى الثانى.

هوامش ومراجع الفصل السابع

(1) راجع، بول غيلونجى، ابن النفيس، ضمن سلسلة اعلام العرب 57، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ ص 345.

(2) هو أحد قواد الاسكندر الأكبر الذى استقل بحكم مصر بعد موته وتشتت ملكه عام 323ق.م، وبه يبدأ تاريخ البطالسة.

(3) محمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين - دار المعرفة، بيروت، ط ثالثة 1971 جـ 2، ص 238.

(4) بول غليونجى، المرجع السابق ص 35.

(5) ولد فى مدينة تسمى «خلقدونية» فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وكان من بين العلماء الذين استقدمهم بطليموس سوتير إلى الاسكندرية فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد.

(6) د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف، ط الثامنة، القاهرة بدون تاريخ ص 33.

(7) راجع: جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء، باشراف د. ابراهيم بيومى مدكور دار المعارف، ط الثانية 1979، جـ 4، ص 239 - 240.

(8) Ghalioungui, P. `Magic and Medical Science in Ancient Egypt, London, 1963. P. 47.

(9) ولد فى يوليس أحدى مدن بلاد اليونان، وهناك اختلاف حول السنة التى ولد فيها، فقال سارتون سنة 204، وقال غليونجى سنة 310، وتوفى سنة 250 ق.م. ونحن نرجح التاريخ الثانى لان ارازيستراتوس كان معاصراً لهيروفيلوس، ويقال إنه عمل مساعداً له، تلقى تعليمه فى أثينا على يد مترودوروس صهر أرسطو، وغيره، ثم انتقل إلى الاسكندرية حيث برز فى الطب، ولا سيما التشريح.

(10) جورج سارتون المرجع السابق، ص 249.

(11) Ghalioungui, P. ..... Review. P. 49.

ويقول الدكتور بول غليونجى فى كتابه ابن النفيس، والذى أقر فيه اكتشافه للدورة الدموية، يقول فى ص 36: وقد كاد ارازايستراتوس أن يكشف عن الدورة الدموية كما نراها الآن، عندما قال: إن الدم ينطرق من الشرايين إلى الاوردة عن طريق أوعية موصلة دقيقة للغاية.

(12) المرجع السابق – نفس الصفحة.

(13) سارتون م.س، ص 241 - 242.

(14) بول غليونجى، ابن النفيس، م.س، ص 37 - 38.

(15) ذكر كثير من مترجمى جالينوس أنه كان معاصرا للسيد المسيح، منهم محمد البيهقى مؤرخ فارس (996 - 1077م) الذى ذهب فى كتابه «مسارب التجارب وغوارب الغرائب» إلى أن جالينوس آمن بعيسى وأرسل إليه – لعجزه وكبر سنه – ابن اخته «بولس» يباعه على الايمان به.. راجع تفاصيل الخلاف حول مولد جالينوس ووفاته فى عيون الانباء لابن ابنأصيبعة ص 115 - 117، وأخبار العلماء للقفطى ص 86 - 90، وتواريخ الحكماء للشهرزورى ص 461 (الذى ذكر ان جالينوس كان بعد وفاة المسيح بنحو مائتى سنة) والفهرست لابن النديم ص 402 الذى ذكر ان جالينوس بعد المسيح بسبع وخمسين سنة.... الخ.

(16) يقول جالينوس فى كتابه «محنة الطبيب» إنى لما ابتدأت بعلم الطب رفضت اللذات واستخففت بما فيها من عرض الدنيا... واشغلت نفسى دهرى كله بأعمال الطب والفكر فيه، وسهرت عامة ليلى فى تقليب الكنوز التى خلفها القدماء لنا». ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء م.س، ص 121.

(17) ابن جلجل: طبقات الاطباء والحكماء، م.س، ص 41.

(18) الرؤساء الثمانية هم على الترتيب: 1- إسقلبيوس، 2- غورس، 3- منيس، 4- برمانيدس، 5 أفلاطون، 6- اسقلبيوس، 7- أبقراط، 8- جالينوس. راجع الشهرزورى: تواريخ الحكماء، تحقيق مركز التراث القومى والمخطوطات بجامعة الاسكندرية باشراف ومراجعة أ. محمد على أبو ريان – دار المعرفة الجامعية ط أولى 1995، ص 481.

(19) راجع التيجانى الماحى: مقدمة... م.س، ص 28.

(20) بعد اهمال الاراء التى لا تتفق مع عقائدهم مثل قول جالينوس إن للكون روحا.

(21) ومن هؤلاء العلماء القلائل نذكر:

(أ) أبو بكر الرازى (250 - 313هـ) الذى لم يسلم تسليماً مطلقاً بكل نظريات جالينوس، بل نراه يذكر فى كتابه «القولنج» أن جالينوس قد أخطأ فى تشخيص هذا المرض، انظر الفصل الخاص بمنهج الرازى فى التشخيص والعلاج فى كتابى : الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ العلم العربى ، ص133 ، وبعدها .

(ب) باراسلوس (1493 - 1541م) الطبيب السويسرى الذى احرق كتب جالينوس علناً فى ميدان مدينة بازل، وهاجم أطباء عصره، ولكنه أدخل عقاقير جديدة فى العلاج، راجع بول غليونجى: ابن النفيس م.س، ص 39.

(22) راجع المرجع السابق، ص 38 - 39.

(23) أبن النديم: الفهرست: ص 403 - 404.

(24) أبن أبى أصيبعة، عيون الأنباء ، ص 151 .

(25) نفس المرجع ص 154. والكتب الستة عشر هى: 1- كتاب الفرق، 2- كتاب الصناعة الصغير، 3- كتاب النبض الصغير، 4- كتاب اغلاقن، 5- كتاب الاسطقسات، 6- كتاب المزاج، 7، كتاب القوى الطبيعية، 8- كتاب التشريح الصغير، 9- كتاب العلل، 10- كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، 11- كتاب النبض الكبير، 12- كتاب الحميات، 13- كتاب البُحران، 14- كتاب أيام البُحران، 15- كتاب حيلة البُرء، 16- كتاب تدبير الاصحاء. راجع أبن أبى أصيبعة عيون الأنباء ، ص 154 - 157، وابن النديم، الفهرست ص 403. ويذكر الدكتور ماهر عبد القادر فى كتابه القيم دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى ص 171 أن ابن النديم قد أثبت هذه الكتب فى الفهرست بدون ترتيب، أما ترتيبها بهذا الشكل فقد استحدثه أبن أبى أصيبعة نقلاً عن حنين بن اسحق وأبو الحسن على بن رضوان اللذان نقلا ترتيبهم عن يحى النحوى.

(26) راجع الفصل الخاص بحركة الترجمة من هذا الكتاب .

(27) بول غليونجى م.س، ص 40.

(28) نفس المرجع - نفس الصفحة.

(29) راجع القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء م.س، ص 57، 61.



الفصل الثامن

الطب العربى قبل ظهور الاسلام

أسس العرب مدنيات قديمة شهدت بعظمتها الإكتشافات الزثرية التى جرت فى الوطن العربى فى بداية القرن العشرين، والتى مازالت مستمرة إلى يومنا هذا. ولاشك أن تلك المدنيات الراقية قد واكبها تقدم فى المجالات العلمية، ولاشك أيضاً أن الطب قد ساير تلك المدنيات، وأنه كان فى درجة رقيّها. ولكن لم يصل إلينا إلا القليل من أخبار ذلك الرقىّ، وكل ما نعلمه عن الطب قبل الإسلام إنما هو عن الطب عند عرب الجاهلية القريبين من الإسلام[1]. وقد شاع بين الناس أن العرب فى جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم، لا تتصل بغيرها أى اتصال، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب آخر حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها، لا تتصل بهم فى مادة، ولا تقتبس منهم أدباً ولا تهذيباً. والحق أن هذه فكرة خاطئة، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد، نظراً لموقعها الجغرافى ولحالتها الاجتماعية. وهذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من طرق عدة، أهمها: التجارة، وإنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم، والبعثات اليهودية والنصرانية التى كانت تتغلغل فى جزيرة العرب، تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمها[2].

وإذا كان هناك ما يسمى «بالطب الجاهلى العربى» فانه لا يعدو كونه بعض المعارف الطبية التى نقلها العرب ممن جاورهم من الشعوب القديمة، وخاصة الهنود والفرس والكلدانيين، واليونانيين، بالإضافة إلى ما استنبطوه من تجاربهم البسيطة كأثر من آثار خبرتهم العملية.

ولقد تأثر الطب العربى الجاهلى مثله مثل غيره من طب الشعوب الأخرى فى بطريقتين لعلاج الأمراض:

الأولى: هى طريقة الكهنة وما ينبثق عنها من عرافة وسحر وشعوذة.

الثانية: هى طريقة العلاج بالعقاقير والمتمثلة فى بعض الأشربة النباتية والمعدنية البسيطة إلى جانب الاعتماد على الكى والحجامة والفصد. فقد قامت

النار عندهم مقام المطهرات فكانوا عند البتر يحمون الشفرة بالنار قبل استعمالها. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الأصفهانى فى كتابه الأغانى من أنه عندما طال المرض والبلاء بصخر أخو الخنساء الشاعرة «وقد نتأت قطعة مثل الكبد فى جنبه فى موضع الطعنة، قالوا لو قطعتها لرجوت أن تبرأ، فأحموا له الشفرة ثم قطعوها»[3].

وهذا يدل على أن العرب قبل الاسلام عرفوا العلاج الطبيعى للأمراض. نحن لا ننكر أن الطب فى العصر الجاهلى كان طباً بدائياً يقوم على الكهانة والتعاويذ والتمائم أكثر منه على الاستقصاء ومعرفة أسباب الداء قبل وصف الدواء. لكن ذلك لا يمنع أنه قد وُجد إلى جانب العرافين والكهان جماعة من الأطباء الطبيعيين قدموا لمرضاهم بعض النصائح السليمة، ووضعوا لعلاجهم طائفة من الأعشاب والنباتات ذات الأهمية المعروفة فى العلاج. فقد اشتهر العرب منذ الجاهلية بمعرفة كثير من الأمراض وبالحذق فى فهم خواص الأغذية والحشائش. وكانت لهم آراء سديدة أحيانا، وتجارب فجة ناقصة أحياناً أخرى يتوارثونها من مشايخ الحى وعجائزه تعتمد على الكى والفصد والحجامة... الخ[4].

ولقد اشتهر العرب فى الجاهلية بمعرفة الكثير من الأمراض. كما عرفوا من خلال الاختبار الطويل خصائص الاغذية والنباتات المحلية لعلاج هذه الأمراض. وقد أصابوا كثيراً فى هذا الميدان «لأخذهم بالفكرة الصائبة القائلة: داووا المرضى بعقاقير بلادهم»[5].

وقد برز واشتهر لدى العرب فى الجاهلية عدد من الأطباء، كان أقدمهم الطبيب «ابن حِزيم» من تيم الرباب. قيل عنه إنه كان حذقاً فى الطب، فقد بلغ فيه منزلة عالية قياساً إلى زمانه، إلى الدرجة التى معها ضُرب به المثل فيه، فكان يقال فلان «أطب من ابن حزيم». وقد نظمت القصائد الشعرية للثناء عليه، من ذلك قول أوس ابن حجر:

فهل لكما فيها إلى فإننى بصير بما أعيا النطاسى حزيما[6]

واشتهر منهم أيضاً رجل من بنى ثقيف بالطائف هو الحارث بن كلدة الثقفى

الذى عاصر الرسول (ﷺ). ويذكره القفطى ضمن إخبار العلماء بأخبار الحكماء فيقول: «الحارث بن كلدة طبيب العرب فى وقته، أصله من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك البلاد من أهل جنديسابور وغيرها فى الجاهلية وقبل الاسلام. وجاد فى هذه الصناعة وطبب بأرض فارس وعالج وحصل له بذلك مال هنالك، وشهد أهل بلد فارس فيمن رآه بعلمه، وكان قد عالج بعض أجلائهم فبرأ وأعطاه مالاً جزيلاً وجارية حسناء سماها الحارس سمية، ثم ان نفسه اشتاقت إلى بلاده، فرجع إلى الطائف واشتهر طبه بين العرب. وسمية جاريته هى أم زياد بن أبيه»[7].

ويدعوه ابن حلجل، وابن أبى اصيبعة «الحرث بن كلدة» وأنه قد عاصر الرسول (ﷺ)، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين. وقد سأله معاوية قائلا: «ما الطب يا حارث؟ فقال الأزم يا أمير المؤمنين، يعنى الجوع»[8].

ويروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله (ﷺ) فقال: إدعوا له الحارث بن كلدة فانه رجل يتطبب. فلما عاده الحارث نظر إليه وقال: «ليس عليه بأس، اتخذوا له فريقة بشيئ من تمر عجوة وحلبة يطبخان، فتحساها، فبرئ»[9].

ومن أقوال الحارث: «من سره البقاء ، ولا بقاء، فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وليخفف الرداء، وليقل الجماع»[10].

وقد وفد الحارث بن كلدة على كسرى انوشروان، وكان له معه حديث طويل ومن كلامه فيه: إن أساس نظام العادات الصحية هو الاعتدال فى تناول الطعام، وعدم إدخال الطعام على الطعام. ونصح بتجنب الحمامات بعد الوجبات، والعلاقات الجنسية فى حالة السكر. وأيد التغطية فى الفراش أثناء الليل، وشرب الماء حسب الرغبة (وهذا ما أثبته الطب مؤخراً). ونصح أيضاً بالابتعاد عن الأدوية فى حالة الصحة، وأوصى بالحجامة والحقن الشرجية[11].

وبعد انتهاء هذه المحاورة، اعترف كسرى بمكانة الحارث الطبية، ومدى معرفته بهذه الصناعة، حتى أنه أمر بتدوين وتسجيل كل ما قاله الحارث، فكان كتاب «المحاورة فى الطب»[12].

ولما احتضر الحارث بن كلدة «اجتمع إليه الناس فقالوا: مرنا بأمر ننتهى إليه من بعدك، فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا فى أوان نضجها، ولا يتعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء»[13].

وهذا الكلام معمول به فى الطب الحديث.

وقد خلف الحارث إبناً يدعى «النَضر» فكان النضر بن الحارث بن كلدة، الذى تطبب على أبيه وجالس الأفاضل من العلماء والأحبار والكهنة بمكة وغيرها، وبلغ شأواً جليلاً فى العلوم القديمة وعلوم الفلسفة وأجزاء الحكمة.

ويذكر إبن أبى صيبعة ان «النَضر» ابن خالة النبى (ﷺ)، وكان كثير الأذى والحسد للنبى (ﷺ) ويتكلم فيه بأشياء كثيرة، ويحط من قدره عند أهل مكة. حتى كانت غزوة بدر الكبرى 2 هـ – 624م، وكان النضر هذا ضمن أسرى المشركين، فأمر النبى (ﷺ) على ابن ابى طالب بقطع عنقه، ففعل، فقالت فتيلة بنت النضر أبيات شعرية ترثى بها أباها، منها:

فليسمعن النضر إن ناديته	إن كان يسمع ميت أو ينطق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه	لله ارحـــام هناك تمزق
أمحمدُ ولأنت نسل نجيبة	فى قومها والفحل فحل معرق
والنضر أقرب من أخذت بزلة	وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كانت قابل فدية لفديته	بأعز ما يفدى به من ينفق

وهى تشير فى هذه الأبيات إلى القرابة بين النضر والنبى (ﷺ). ويقال إن النبى (ﷺ) تأثر بهذه الأبيات، وقال «لو سمعت هذا قبل أن اقتله ما قتلته»[14].

ويبدو أن رواية إبن أبى أصيبعة هذه تفتقد إلى الأسانيد القوية حيث، إن النضر الذى قتله النبى (ﷺ) لم يكن النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى الطبيب، ولكنه رجل آخر وذلك على ما يذكر ابن هشام فى سيرته، فيدعوه: النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى. «وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله (ﷺ)، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله (ﷺ) مجلساً فذكر الله، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه! ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم، واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منى؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما «فيما بلغنى نزل فيه ثمان آيات من القرآن منها قول الله عز وجل «**إذا تتلى عليه أياتنا قال أساطير الأولين**»[15].

ويذهب «إدوارد براون» إلى أن صديقا له يدعى «ميرزا محمد» قد أثبت له بالأدلة أن النضر الذى أمر الرسول (ﷺ) بقتله هو النضر بن الحارث بن كلدة العلقمى، وليس النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى الطبيب[16].

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى أطباء عاصروا الرسول (ﷺ)، فلا ينبغى لنا أن نتعدى هذه الفترة دون الحديث عن الطب النبوى. ذلك أن أطباء عصر النبوة فى بداية هذا العصر يعدون حلقة الوصل بين الممارسات الطبية فى العصر الجاهلى، واكتمال تيارات العمل الطبى فى خضم عصر النبوة نفسه وصولاً إلى قمة إزدهاره فى العصر العباسى الثانى. وهذا ما نطالعه فى الصفحات التالية.



هوامش ومراجع الفصل الثامن

(1) د. فرج محمد الهونى، تاريخ الطب فى الحضارة العربية الاسلامية، م.س، ص 27.

(2) أحمد أمين، فجر الاسلام، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربى، بيروت 1969، ص 12.

(3) د. التيجانى الماحى، مرجع سابق، ص 35.

(4) د. مرحبا، مرجع سابق، ص 243.

(5) د. عمر فروخ، عبقرية العرب فى العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، ط الرابعة بيروت 1985، ص 118.

(6) التيجانى الماحى، مرجع سابق، ص 35.

(7) القفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة 1926، ص 111.

(8) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص 54.

(9) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء.. ص 161.

(10) نفس المرجع، ص 165.

(11) P.M. Holt, Ann K.S. Lambton and Bernard Lewis: The Cambridge History of Islamic Society and Civilization. Combridge University. vol 28. press 1970. p. 767.

(12) راجع تفاصيل هذه المحاورة فى عيون الأنباء.. ص 162، وبعدها.

(13) عيون الأنباء .. ص 166.

(14) عيون الأنباء، ص 170.

(15) إبن هشام، السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمى السرجانى، المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ، جـ 1، ص 210.

(16) Brown, Edward: Arabian medicine. Cambridge 1921. p.11.



الفصل التاسع
الطب النبوى



بعث رسول الانسانية محمد (ﷺ) فى أرض فقيرة بالطب والأطباء، ولكن ليس من مهمات الرسل عليهم السلام أن يعلموا الناس الطب، ولا القيام بإيضاح العلوم الكونية، فان ذلك متروك لجهود البشر وتجاربهم وأبحاثهم العلمية. ومع ذلك لم يخل تشريع سماوى من وصايا صحية تنادى بالنظافة والطهارة والاعتدال فى الطعام والشراب وتحريم الضارات، وكان نصيب الإسلام من ذلك القسط الأوفر[1]. على ما سيتبين لنا فى سياق هذا الفصل.

روى صاعد الاندلسى[2] أن أمة العرب فى صدر الاسلام كانت لا تعنى بشئ من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشى صناعة الطب، فانها كانت موجودة عند أفراد من العرب، لحاجة الناس طراً إليها، ولما كان عندهم من الأثر عن النبى (ﷺ) فى الحث عليها حيث يقول: «يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحد وهو الهرم».

وعلى ذلك نجد أن الممارسات الطبية عند العرب قد تابعت مسيرتها فى العصر الجاهلى عند المسلمين بعد بزوغ شمس النبوة، إلا أنها اتخذت طابعاً إيمانياً ينضح بروح الإسلام ويقيم المرض والصحة على أساس العناية والقدرة الإلهية.

ولكى تتضح لنا أبعاد هذه المسألة ينبغى لنا أن نعرض للحركة الطبية فى عصر النبوة بصورة موجزة. ولجملة الآراء التى يسوقها المؤرخون حول تفسير هذا الموقف، من حيث إن مؤرخاً كابن خلدون يرى أنه خضوعاً للمواضعات العلمية، فلابد من أن يفسر الشفاء كأثر من آثار تفاعل الدواء مع الظاهرة المرضية. ولهذا فإنه على الرغم من أن الشفاء والمرض من عند الله، إلا أنه ينبغى التسليم بأن لكل شئ سببا «**فاتبع سببا**»[3].

أما غير ابن خلدون من أمثال «ابن قين الجوزية» فهم يرون أنه استناداً إلى أن الرسول (ﷺ) لا ينطق عن هواه «**إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى**»[4]، **فهو معصوم من الخطأ، مصيب فى كل ما يقول. ولكن التعميم فى هذه الناحية لا يتفق مع ما جرى من أحاديث الرسول (ﷺ) حول شئون الدنيا فقد**

يصيب ويخطئ كباقى البشر، فهو (ﷺ) معصوم من الخطأ فيما يوحى به إليه فقط. وهل نعتبر أن الطب من ضمن ما أوحى به إلى النبى (ﷺ) من أمور؟.

الواقع أنه ليست هناك آيات صريحة على هذا. ولكن يبدو أن الرسول (ﷺ) قد استقى طبه من إلهام صادق فى مرتبة الوحى بالطبع. ومن خبرة طويلة يحكمها عقد نافذ، بدليل أنه ليس من الضرورى أن يشفى المرض تماماً كأثر من آثار تجرعه للدواء الذى يصفه الرسول (ﷺ). وربما أرجع البعض ذلك إلى عدم توافر النية الحسنة.

ومن هنا يأتى هذا البحث محاولاً ترجيح أحد الموقفين المتعارضين فى تناول الطب النبوى. وفى سبيل ذلك يطرح الباحث سؤالاً يدور حوله البحث وهو:

هل تتوقف فائدة الطب النبوى على استخدامه من جهة التبرك، وصدق العقد الإيمانى كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون؟ وعليه فإذا تناول شخص غير مؤمن أحد الوصفات الناجحة التى وصفها النبى (ﷺ) لعلاج داء ما، فإنه لا يشفى وذلك فى مقابل شفاء الشخص المؤمن المصاب بنفس الداء إذا تناول نفس الدواء؟

أم أن الطب الذى رسم لنا معالمه النبى (ﷺ) يفوق طب الأطباء من حيث إنه لا ينطق عن الهوى ، على ذهب إليه ابن قيم الجوزية؟

هذا ما سوف ينتهى إليه الفصل، والذى تتطلب مقتضياته أن يبدأ بعرض موجز للطب النبوى، ثم يعرج منه إلى عرض وجهتى نظر ابن خلدون، وابن قيم الجوزية متناولاً لهما بالنقد والتقييم، لينتهى من كل ذلك إلى أيهما أقرب إلى الطب المعاصر.

أولاً: موجز الطب النبوى:

ينحصر الطب النبوى فيما أثر عن النبى (ﷺ) من الأحاديث الشريفة الخاصة بالمرض، والتى تشتمل على بعض الأمراض والعلل، وذلك على قدر ما كان متاحا من الوسائل العلاجية، وعلى قدر ما كان مشاعاً من الأمراض.

ولقد أحصى الإمام البخارى هذه الأحاديث، فبلغت جملتها كتابين فى الجزء الرابع من صحيحه.

الكتاب الأول: كتاب المرضى[5] ، صنفه فى اثنين وعشرين باباً تحتوى على ثمانية وثلاثين حديثاً عن وجوب عيادة المريض[6] والدعاء له[7]، وما يقال فى ذلك، وعن عيادة النساء للرجال[8]، وعن عيادة المشرك، وعيادة الصبيان[9]، والدعاء برفع الوباء.

أما الكتاب الثانى فهو كتاب الطب يحتوى – فى صحيح البخارى – على واحد وتسعين حديثاً مجموعة فى ثمانية وخمسين باباً، يبدأ الباب الأول منها بحديث الرسول (ﷺ) «**ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء**»[10]، فمن الأمراض جاء ذكر الصداع والشقيقة، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى (ﷺ) أحتجم وهو محرم فى رأسه من شقيقة كانت به[11].

وروى عن ابن ماجة فى سننه حديثاً – فى صحته نظر – وهو «أن النبى (ﷺ) كان إذا صدع، غلف رأسه بالحناء ويقول: إنه **نافع بإذن الله من الصداع**»[12].

وقد أشار (ﷺ) بالقسط والزيت كعلاج لذات الجنب[13]، والقسط هو نوع من العود الهندى[14]. وروى أن النبى (ﷺ) دخل على السيدة عائشة فى يوم فوجد عندها إمرأة وعلى حجرها طفل وقد وضعت أصبعها فى فيه والدم يخرج حوله. فقال لها ماذا تفعلين؟ فقالت أعالجه. فقال لها ما هكذا يكون العلاج. فسألته (ﷺ) عن العلاج فقال لها: **عليك بالقسط يخلط بالزيت ويقطر فى الأنف**[15].

يقول الدكتور على محمد مطاوع[16]: فشد انتباهى طريقة استعمال الدواء، وهى تنقيطه فى الأنف. وبحثت فى كتاب «تذكرة داود الانطاكى» عن القسط فعرفت أنه جذور نباتية. أما الزيت فالمقصود به زيت الزيتون فلم تكن العرب تعرف زيتا غيره فى ذلك الحين. وحصلت على القسط من عند العطار ودققته ناعماً واستعملته أولاً كسعوط، فوجدته يفتح سدد الأنف فى أقل من ثلاث دقائق،

وبذلك يزول الصداع الناشئ عن انسداد فتحات الجيوب الأنفية، وهذا يساعد على خروج الأشياء المتراكمة في الجيوب الأنفية، كما يساعد على دخول الهواء إلى الجيوب الأنفية الخالية من الإفرازات والتي قل ضغط الهواء فيها نتيجة لانسداد فتحتها بسبب احتقان الغشاء المخاطي للأنف مصحوباً بتراكم إفرازات مخاطية لزجة على الفتحة. والقسط يقلل أو يزيل الاحتقان في الغشاء المخاطي ويقلل إفراز المواد المخاطية وبذلك يساعد على فتح الجيوب الأنفية والتخلص من الإفرازات المتراكمة داخلها أو يساعد على دخول الهواء إلى الجيوب التي قل ضغط الهواء داخلها. ولذلك يزول الصداع ويفتح سدّ الأنف ويسهل مرور الهواء إلى الرئتين، وبذلك يساعد على قفل الفم أثناء النوم لمن يضطرون إلى التنفس من الفم أثناء النوم لإنسداد الأنف.

وعن مرض الطاعون، جاء في الصحيحين، وعند مالك، والنسائي، وأحمد أن النبي (ﷺ) قال: **«الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»**. وعن عائشة أنها قالت للنبي (ﷺ) الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: **غدة كغدة البعير تخرج في المراق والإبط»**.

ومن ذلك يتضح أن ما أمر به (ﷺ) في شأن هذا المرض من عدم الدخول أو الخروج من أرض وقع فيها يتفق تماماً مع ما هو معمول به الآن في الطب الحديث فيما يعرف بالكردون الصحي حول المنطقة التي يظهر فيها المرض، فيمنع دخول أو خروج أي شخص إلا الأطباء، هؤلاء الذين يتخذون كافة الإجراءات الوقائية من تعقيم وخلافه، وبذلك يتم حصر المرض وعدم انتشاره إلى أماكن أخرى. فيسهل مراقبة المرضى وعلاجهم[17].

وقد طبق عمر بن الخطاب هذا الأمر وهو في رحلته إلى الشام، ولما قال له بعض الصحابة: **أتفر من قضاء الله يا عمر؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قضاء الله.**

ويدخل حديث «الطاعون» ضمن «الطب الوقائي» الذى حرص القرآن عليه نظراً لأهميته التى تفوق الطب العلاجي، ومن صوره فى القرآن تحريم الخمر، يقول الله جل وعلى: **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**[18]. وقال الرسول (ﷺ): «ما أسكر كثيرة فقليله حرام».

ونحن نعلم تأثير المسكرات (أى كل ما يحتوى على الكحول) على الكبد، فإنه يسبب تليفه ويؤثر بالتالى على وظائفه الحيوية اللازمة للحياة[19]. ولا يوجد طبيب على ظهر الأرض إلا ويتفق مع القرآن فى نهيه عن الخمر، فهى تؤثر على العقل والبدن معاً، والعقل هو المحرك الأول لهذا الجسد. وقد قيل إن الخمر تغرق فى كئوسها أكثر مما تغرق بحار العالم. والخمر تؤثر على الجهاز العصبى، ومن هنا نفهم الحكمة الالهية فى التدرج فى تحريمة[20].

وقد نهى النبى (ﷺ) عن التداوى بالمحرمات، فقال (ﷺ) **«إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تداووا بالمحرم»**[21] و: **«إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حُرم عليكم»**[22].

فالخمر أم الخبائث، وما جعل الله لنا فيها شفاء قط، إذ أنها شديدة الإضرار بالعقل، ولا يصح أن يطلب الشفاء من الأمراض والأسقام والعلل من المحرم والخبيث. وربما يكون التداوي بالمحرمات ذريعة لدى النفس الراغبة فيها، والتى تميل بشهوة إليها ولذة فى احتسائها، فتبرر تناولها بأنها نافعة لها مزيلة لأسقامها جالبة لشفائها، لذلك تدمن شربها، وتحب تناولها.

وهناك سر لطيف فى جعل الله سبحانه وتعالى المحرمات مما لا يشفى بها. فالمعروف من الناحية النفسية أن من شروط الشفاء بالدواء أن يكون المريض مقتنعاً به معتقداً فى منفعته، إضافة إلى ما جعل الله فيه من البركة، وأن اعتقاد المسلم فى تحريم الخمر مثلا، يحول ذلك بينه وبين الاعتقاد فى بركتها ومنفعتها،

وحسن الظن بها، وكراهية تناولها، وكلما كان العقل أكثر إيماناً، كان اكره لها ولشربها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه ينفر منها، فإذا تناولها كانت له داءً لا دواء[23].

ويمثل الطب الوقائى الجزء الأكبر من الطب النبوى من حيث إن الشارع قد جعل الوقاية من مسائل العبادات، مثل العناية بالصحة البدنية (حركات الصلاة الرياضية)، والنظافة (الوضوء والاغتسال)، ورعاية الجلد، وصحة الحواس، والغذاء، والملبس، والتحرز من الأدواء المعدية بطبعها، وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها.

ومن تأمل هدى النبى (ﷺ)، وجده أفضل هدى يمكن حفظ الصحة به: فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم، والمشرب، والمسكن، والهواء، والنوم، واليقظة، والحركة، والسكون، والمنكح، والاستفراغ، والاحتباس. فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة والعافية. أو غلبتها إلى انقضاء الأجل[24].

ففيما يختص بالمأكل والمشرب، قال تعالى: **«وكلوا من طيبات ما رزقناكم»**[25]. **«وكلوا من الطيبات واعملوا صالحا»**[26]. **«وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»**[27]. **«إنما حُرم عليكم المَيْتَةَ والدَمَ ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به والمنخنقة والموقُوذةُ والمتردية والنطيحةُ وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ما ذُبح على النصب..»**[28].

فحكمة الشارع فى القرآن قد اقتضت اعلامنا أن الدم المحبوس فى الأوردة والشرايين يسرع فى إفساد اللحم. وقد أثبت الطب الحديث ذلك الأمر.

وأثبتت الأبحاث أيضاً أن لحم الخنزير عسر الهضم لاحتوائه على الدهنيات أكثر من أى لحم آخر. كما أنه مصدر للعدوى بديدان التريخيلا التى تسبب آلام روماتيزمية شديدة فى العضلات كما أنها مصدر للعدوى بالدودة الشريطية (تينياسوليم)، والدودة وبويضاتها تصيب الانسان بخلاف الدودة الشريطية التى تعيش فى البقرة فان بويضاتها لا تصيب الانسان. هذا فضلا عن أن آكلى لحم

الخنزير لا يغيرون على زوجاتهم كما يفعل الخنزير أى أنهم يكتسبون صفات الخنزير وسلوكه نحو زوجته[29].

وسألت السيدة عائشة رضى الله عنها النبى (ﷺ) عن حد الاسراف فى قوله تعالى: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» فقال لها: **يا عائشة الأكل فى اليوم مرتين اسراف والله لا يحب المسرفين.** وقال رسولنا (ﷺ) «**كلوا الطعام شتى فان حر هذا يطفئ برد هذا**». وهذا يعنى أن تعدد مصادر الطعام واجبة لاستكمال المواد الغذائية اللازمة للانسان. فالطعام يجب أن يشتمل على المواد الكربوهيدراتية، والمواد الزلالية، والمواد الدهنية، والأملاح، والفيتامينات[30].

فلم يكن من عادته (ﷺ) كما يروى ابن القيم[31] حبس النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه، فان ذلك يضر بالطبيعة جداً، وقد يتعذر عليها أحياناً. فان لم يتناول غيره، ضعف أو هلك، وإن تناول غيره لم تقبله الطبيعة، فاستضر به. فقصرها على نوع واحد دائماً – ولو أنه أفضل الأغذية – خطر مضر. وإذا كان فى أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل، كسرها وعدلها بضدها إن أمكن، كتعديله حرارة الرطب بالبطيخ، وإن لم يجد ذلك، تناوله على حاجة من النفس من غير إسراف، فلا تتضرر به الطبيعة. وكان (ﷺ) إذا عافت نفسه الطعام، لم يأكله، ولم يحملها إياه على كره. وهذا أصل عظيم فى حفظ الصحة. فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه، كان تضرره به أكثر من انتفاعه. قال أنس: «ما عاب رسول الله (ﷺ)، طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه ولم يأكل منه»[32]. وكان يحب اللحم، وأحبه إليه، الذراع ومقدم الشاة، ولذلك سم فيه[33].

وأما هديه فى الشراب، فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة، فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد. وفى هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدى إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء. فان شربه ولعقه على الريق يذيب البلغم، ويغسل حمل المعدة، ويجلوا لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال، ويدفع سددها، ويفعل

مثل ذلك بالكبد والكُلى والمثانة. وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها. وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء، لحدته وحدة الصفراء، فربما هيجها. ولكن يدفع مضرته لها بالخل، فيعود حينئذ لهم نافعاً جداً. وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر، ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألفها طبعه. فإنه إذا شربها، لا يلائمه ملائمة العسل، ولا قريبا منه. والمحكَّم فى ذلك العادة. فإنها تهدم اصولاً، وتبنى اصولا[34].

وقد أمر (ﷺ) بالشرب من أبوال وألبان الأبل لعلاج مرض الاستقساء. وهو مرض خطير يؤدى إلى الوفاة غالباً، إلا أن يشاء الله، وأهم أعراضه الظاهرة، انتفاخ البطن نتيجة لوجود سائل مصلى داخل التجويف البريتونى. وأسباب هذا المرض عديدة، أهمها تليف الكبد نتيجة الإصابة بالبلهارسيا، هبوط القلب، الدرن البريتونى...

فى الصحيحيين، من حدث أنس بن مالك، قال: «قدم رهط من عُرينة وعُكَل على النبى (ﷺ)، فاجتوَوا المدينة، فشكوا ذلك إلى النبى (ﷺ)، فقال: لو خرجتم إلى إبل الصدقة، فشربتم من أبوالها وألبانها. ففعلوا. فلما صَحوا: عمدوا إلى الرعاة، فقتلوهم واستاقوا الإبل وحاربوا الله ورسوله. فبعث رسول الله (ﷺ) فى آثارهم، فأخذوا، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسملَ أعينهم، وألقاهم فى الشمس حتى ماتوا». والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء، ما رواه مسلم فى صحيحه - فى هذا الحديث - أنهم قالوا: «إنا اجتوينا المدينة، فعظمت بطوننا، وارتهشت أعضاؤُنا»، وذكر تمام الحديث. ولما كانت الأدوية المحتاج إليها فى علاجه هى الأدوية الجالبة التى فيها إطلاق معتدل، وإدرار بحسب الحاجة، وهذه الأمور موجودة فى أبوال الإبل وألبانها، أمرهم النبى (ﷺ) بشربها، فإن فى لبن اللقاح جلاءً وتليينا، وإدراراً وتلطيفاً وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان والإذخر، وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء.

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة فى الكبد خاصة. قال الرازى: «لبن اللقاح

يشفى أوجاع الكبد وفساد المزاج». وقال صاحب القانون: «ولا يلتفت إلى ما يقال: من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء. قال: واعلم أن لبن النوق دواء نافع، لما فيه من الجلاء برفق، وما فيه من خاصية. وإن هذا اللبن شديد المنفعة. فلو أن إنساناً أقام عليه بدل الماء والطعام، لشفى به. وقد جُرب ذلك فى قوم دُفعوا إلى بلاد العرب، فقادتهم الضرورة إلى ذلك، فعُرفوا. وأنفع الأبوال، بول الجمل الأعرابى، وهو النحيب[35].

وعن الحمى وعلاجها قال (ﷺ) ما ثبت فى الصحيحين «**إنما الحمى، أو شدة الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء**» .وهذا العلاّج الذى أوصى به النبى (ﷺ) للحمى يتفق مع مقال به فاضل الأطباء «جالينوس»: «ولو أن رجلا شابا حسن اللحم خصب البدن فى وقت القيظ وفى وقت منتهى الحمى وليس فى أحشائه ورم استحم بماء بارد أو سبح فيه لانتفع بذلك... ونحن نأمر بذلك بلا توقف»[36]. ويتفق هذا الكلام أيضا مع ما قاله جالينوس العرب بعد النبى (ﷺ)، وهو أبو بكر الرازى، حيث ثبت فى كتابه الحاوى: «إذا كانت القوة قوية والحمى حادة جدا - والنضج بين، ولا ورم فى الجوف، ولا فتق - ينفع الماء البارد شربا، وإن كان العليل خصب البدن، والزمن حار، وكان معتادا استعمال الماء البارد من خارج فليؤذن فيه»[37].

وإذا ما قبلتنا هذه الحقيقة، والتى مؤداها: أن الطب الحديث يأخذ بالعلاج النبوى للحمى، لأدركنا ما ينطوى عليه هذا الطب - الموحى به - من أمور جد عظيمة ومفيدة. فما زال علاج الحمى بالماء البارد ساريا لتهبيط درجة حرارة الجسم المرتفعة والعلاج على طريقتين:

(أ) خارجيا: ويكون على هيئة مكمدات مثلجة تلطف بها أجزاء الجسم وخاصة الدماغ، وفى بعض الحالات مثل ضربات الشمس ينصح بوضع المصاب كلية فى الثلج حتى تنخفض درجة حرارته المرتفعة التى من الممكن أن تؤدى بحياته إذا لم يفعل ذلك.

(ب) داخليا: ويكون بتعاطى الماء البارد بكثرة عن طريق الفم.

وعن الرمد وأمراض العين، وعلاجها قال سعيد بن زيد: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **،الكمأة من المن وماؤها شفاء العين،**[38]. وقد روى فى حديث مرفوع ،علاج الرمد تقطير الماء البارد فى العين،. وهذا الحديث وإن كان هناك شك فى صحته عند ابن القيم، إلا أنه يتفق مع ما يقول به الطب الحديث من حيث إن غسيل العين المصابة بالرمد بالماء المغلى المعقم، يعمل على إزالة الإفرازات الالتهابية الصديدية[39].

وعن مرض الجذام الخطير قال الرسول (ﷺ) **،... ولا هامة ولا صفر**[40] **وفر من المجذوم فرارك من الأسد،**[41].

وعن جابر بن عبد الله أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إلى النبى (ﷺ) **،أرجع فقد بايعناك،**[42]. وفى الطب النبوى يورد ابن القيم هذين الحديثين عن النبى (ﷺ) **،لا تديموا النظر إلى المجذومين، و،كلم المجذوم وبينك وبينه رمح أو رمحين،**[43].

وللنبى (ﷺ) آثار عظيمة فى علاج الكثير من الأمراض، وبعض الأدوية المفردة ومنافعها، وفوائد الأطعمة، ولاسيما التمر، والأشربة، ولاسيما العسل واللبن. كذلك أشار (ﷺ) بالرقى بالقرآن والمعوذات للمرضى، ولمن أصابته العين، وللسعة الحية والعقرب، ونهى عن السحر[44].

فعن البلح والتمر مثلا روى النسائى وابن ماجه فى سننهما، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله (ﷺ): **،كلوا البلح بالتمر. فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر، يقول: بقى ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق،**. قال بعض أطباء الاسلام: ،إنما أمر النبى (ﷺ) بأكل البلح بالتمر، ولم يأمر بأكل البسر مع التمر، لأن البلح بارد يابس، والتمر حار رطب، ففى كل منهما إصلاح للآخر. وليس كذلك البسر مع التمر: فإن كل واحد منهما حار، وإن كانت حرارة التمر أكثر، . ولا ينبغى –من

جهة الطب – الجمع بين حارين أو باردين. وفى هذا الحديث التنبيه على صحة أصل صناعة الطب، ومراعاة التدبير الذى يصلح فى دفع كيفيات الأغذية والأدوية بعضها ببعض، ومراعاة القانون الطبى الذى يحفظ به الصحة»[45].

كذلك رغب النبى (ﷺ) فى أكل التمر. ففى الصحيحين، من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من تصبح بسبع تمرات من تمر العالية، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»**. فالتمر يدخل فى الأغذية والأدوية والفاكهة، وهو يوافق أكثر الأبدان، مقو للحار الغريزى. ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة، ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده، من تعفن الأخلاط وفسادها[46].

وقد أجمل النبى (ﷺ) التداوى والشفاء فى ثلاثة حيث قال: **«إن كان فى شئ من أدويتكم خير ففى شربه عسل أو شرطة محجم أو لدغة من نار، وما أحب أن أكتوى»**[47].

وقد كان النبى (ﷺ) مداوماً على شرب العسل – كلما تيسر له – وقد احتجم على كاهله تارة، وفى رأسه تارة، وعلى ظهر قدمه تارة أخرى. فكان يستفرغ مادة الدم المؤذى من أقرب مكان إليه[48].

نكتفى بهذا القدر من الطب النبوى، فوصايا الرسول (ﷺ) فى هذا الميدان تحتاج إلى مؤلفات قائمة بذاتها، وقد أنجز بالفعل بعض منها. «وتمثل هذه المجموعات سنن فى رسالة طبية منظمة»[49].

ثانياً: تقييم الطب النبوى:

لقد اختلفت نظرة المؤرخين إلى الطب النبوى – كما سبق أن ذكرت – فمنهم من ربط فائدته بصحة العقد الإيمانى والتبرك بالنبى (ﷺ)، ويمثل هذا الفريق ابن خلدون. ومنهم من رأى أن هذا الطب النبوى يفوق طب الأطباء من حيث إنه صادر من الوحى ومشكاة النبوة. ويمثل هذا الفريق ابن قيم الجوزية.

لنعرض لرأى الاثنين: ابن خلدون، وابن القيم، وذلك لنرى أيهما أقرب إلى الطب المعاصر القائم على التجربة العلمية.

(1) رأى ابن خلدون:

مع أن ابن خلدون يأخذ بحديث النبى (ﷺ) «**المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة**»[50]، ويجعل مدار بحثه فى فصل صناعة الطب وأنها محتاج إليها فى الحواضر دون البادية، من مقدمته الشهيرة، إلا أنه يعود ليقرر فى نهاية فصل، علم الطب بأنه (ﷺ) إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعليم الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له فى شأن تلقيح النحل ما وقع فقال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» فلا ينبغى أن يحمل شئ من الطب الذى وقع له من الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيمانى، فيكون له أثر عظيم فى النفع»[51].

(2) رأى ابن القيم:

وليس طبه (ﷺ) كطب الأطباء، فإن طب النبى (ﷺ) متيقن قطعى إلهى صادر عن الوحى ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب[52].

ومعنى هذا – لدى ابن القيم – أن طبه (ﷺ) ليس من أمور الدنيا فقط كما ذكر ابن خلدون، مثله فى ذلك مثل تأبير النحل، وحفر الخندق، أو غيرهما من الأمور الدنيوية والتى لا يحتم على النبى (ﷺ) الإلمام بها.

وإذا كان للباحث من رأى، فإنه إنما يميل إلى رأى ابن القيم، وذلك استناداً إلى حديث «**ما أنزل الله من داء، إلا وأنزل له دواء**». فمنذ اللحظة التى نطق فيها الرسول (ﷺ) بهذا الحديث، كان لزاماً عليه أن يجيب كل سائل عن دواء لداء أصابه إذا ما سأله ذلك، وبالطبع فإنه «**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى**»[53] .. **ومن أصدق من الله قيلاً**[54].

إن الإسلام يحث على النظرة العلمية للأمور، ومنها المرض الذى يحتاج إلى دواء وعلاج لكى يسترد المريض صحته التى اعتلت بسبب هذا المرض. وتتميز النظرة النبوية للعلاج بالدقة والعمق، وذلك بناء على الحديث السابق، والذى رواه أحمد ومسلم بهذا اللفظ «لكل داء دواء. **فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل**» بمعنى إذا قبل جسم المريض الدواء، حصل له الشفاء - بحول الله - وإذا لم يقبله، استمر فى سقمه. وهذا ما يعرف فى الطب الحديث بما يسمى بالحساسية للدواء.

وهذا الحديث له جانب نفسى عظيم، لا للمريض فقط، بل وللطبيب أيضا، فإنه متى استشعر المريض أن لداءه دواء، ارتفعت روحه المعنوية Moral تلك التى يعلق عليها الطب أهمية كبيرة فى البرء. أما الطبيب فإنه متى علم أن لهذا المرض دواء ، جد فى طلبه والتفتيش عنه.

فقد وصف النبى (ﷺ) العسل[55] كدواء لرجل أصابه الإسهال نتيجة لما أصاب المعدة من أخلاط لزجة تعمل على عدم استقرار الطعام فيها. وينحصر الدواء فيما يزيل تلك الأخلاط، ويجلى المعدة، وأصلح الأدوية لذلك، العسل، ولا سيما إذا أضيف إليه ماء ساخن.

وفى تكراره (ﷺ) سقيه العسل معنى من أبدع المعانى الطبية، وهو: أن الدواء لابد وأن تقدر كميته حسب حال صاحب الداء، فلا تنقص، ولا تزيد عن المقدار المطلوب. فما زال (ﷺ) يأمر بشرب العسل، وتكررت الشربات حتى وصلت إلى المقدار المقاوم للداء، فبرئ المريض بإذن الله. وفى قوله (ﷺ) صدق الله وكذب بطن أخيك، دلالة على نفع العسل كدواء، وأن استمرار الداء ليس لعيب فى الدواء، ولكن لكثرة المادة الفاسدة فى البطن مما يتطلب تكرار الدواء.

وعلى ذلك بدأ الطب الحديث يدرك القيمة الغذائية العظيمة للعسل لأنه يحتوى على معظم العناصر اللازمة للجسم، ففيه مقادير من الحديد والمنجنيز، والصوديوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والماغنسيوم، وفيتامين «ب» المركب،

وفيتامين «ج»، كما أن خمس وزنه ماء، وأربع أخماسه كربوهيدرات، «كما تعطى كل مائة جرام من عسل النحل ما يقرب من 294 سعرا حراريا.. ورغم أن العسل له حلاوة تبلغ ضعفى حلاوة السكر العادى، إلا أنه يعتبر أقل ضررا للمصابين بالسكر من السكر العادى، وذلك لأن العسل يتحول فى جسم النحلة إلى سكر بسيط سهل امتصاصه لا يحتاج إلى عملية هضم طويلة داخل جسم الإنسان، وهو بذلك يعتبر ملين خفيف، ومهدئ جيد للأعصاب»[56].

ومن هنا بدأ العمل الحديث داخل أروقة المعامل وقاعات البحث، وكان من نتيجة ذلك أن توصل العلماء إلى العديد والعديد من التراكيب النافعة لعسل النحل تدخل فى علاج الكثير من الأمراض، كالتبول فى الفراش، والجروح المتقيحة[57] والزكام والجيوب الأنفية، والتهاب الحلق، وقرحة المعدة، والأثنى عشر، وزيادة الحموضة.

وللعسل فوائد للكبد والقلب[58]، والأعصاب، والعيون، والتسمم الكحلى، والسعال (الكحة). وله أيضا فوائد للبشرة والجلد. ويفيد العسل وخاصة غذاء الملكات (الرويال جيلى) فى علاج حب الشباب، والدمامل التى تظهر بالوجه. كذلك ينفع المرضى الذين يشكون من عدم القدرة على التركيز الذهنى، وسرعة الشعور بالتعب. هذا بالإضافة إلى «الضعف الجنسى، وانقطاع الدورة الشهرية فى السيدات اللاتى بلغن سن اليأس مبكراً»[59].

وهذا قول مختصر فى عسل النحل، أردت وضعه كمثال لما ينطوى عليه الطب المحمدى من فوائد جد عظيمة. وصدق ربنا جل وعلى إذ يقول: «... **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**»[60] وصدق رسوله الكريم (ﷺ) حينما قال: «**عليكم بالشفاءين العسل والقرآن**»[61].

وفى الطب العلاجى النبوى هناك أيضا الحبة السوداء، أو حبة البركة، والتى تعالج عددا كبيرا من الأمراض المعاصرة لما تحتويه من مواد وقائية مضادة

لمعظم الأمراض مثل الفوسفات، والحديد، والفوسفور، والكربوهيدرات، والمضادات الحيوية. وبها هرمونات جنسية مقوية ومخصبة ومنشطة ومدرة للبول والصفراء. وتحتوى على إنزيمات مهضمة ومضادة للحموضة وبها مواد مهدئة ومنبهة معا.

ولقد أثبتت الأبحاث أن بذور حبة البركة تحتوى على 43.3٪ كربوهيدرات، 21٪ بروتين، 35.5٪ دهون، و5.59٪ رطوبة، و3.7 رماد. وتحتوى هذه البذور أيضاً على زيت طيار، وزيت ثابت.. أما الزيت العطرى الطيار والذى يتم الحصول عليه بواسطة عملية التقطير بالبخار فتتراوح نسبته من 1 - 15٪. ويحتوى على مادة النجللون Nigellon والتى تستخدم لعلاج الربو الشعبى والنزلات المزمنة من شدة البرد والسعال الديكى. وكذلك يحتوى الزيت الطيار على مادة الثيموهيدروكينون Zumohydrqauinone ونسبتها 5٪. وتستخدم ضد بكتريا التعفن المعوى كمادة مطهرة للفلورا المعوية الضارة.

أما الزيوت الثابتة فتتراوح نسبتها من 30 - 35٪ وتشمل الأحماض الدهنية المكونة منها: حمض اللينوليك 56٪، الأوليك 24.6٪. والبامتيك 12٪، والأستيارك 3٪، والأيكوساونيك 2.5٪، والميرستيك 16٪[62].

وتستخدم حبة البركة فى علاج معظم الأمراض تقريباً، وأشهرها: الكحة وأمراض الصدر إذا أضيف من زيتها 3 - 5 نقط إلى الشاى أو القهوة. والزيت مسكن معوى طارد للرياح، ومدر للطمث واللعاب. وقد استخلص بعض أطباء كلية الطب بجامعة الإسكندرية من حبة البركة مادة تستعمل فى علاج مرض الربو أسموها Nigellone[63].

وأمام هذه النتائج المبهرة التى توصل إليها العلم الحديث من الأبحاث التى أجريت على الحبة السوداء. لا نملك إلا أن نقف فى إجلال وتعظيم عند قول النبى (ﷺ): «**الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام، قالت عائشة: وما السام؟** قال: «الموت»[64].

كانت هذه أمثلة قليلة لما يزخر به الطب النبوى من مواد علاجية مفيدة فى الوقت الحالى. وهى تعتبر بمثابة الدليل الواضح الذى يخالف رأى ابن خلدون السالف الذكر والقائل بإن الطب النبوى لا ينبغى أن يؤخذ إلا من جهة التبرك وصدق العقد الإيمانى ومما يخالف هذا الرأى أيضا أن معظم المشتغلين بالأبحاث الحالية على بعض المواد العلاجية المذكورة فى الطب النبوى هم أناس من غير المسلمين لا يعنيهم التبرك بالنبى (ﷺ) وليس لديهم أدنى صدق إيمان به يحقق لهم الشفاء من الأمراض إذا ما تعالجوا بمثل هذه المواد.

خاتمـة:

وبناء على كل ما سبق، فإن الباحث يرى أنه إذا ما وضع القائمون على أمر الطب والمشتغلين بالتراث نصب أعينهم مسألة التنقيب فى التراث الطبى الإسلامى العربى، ومن ضمنه الطب النبوى، فسيجدوا فيه ما يصلح فى عصرنا هذا.

وعلى ذلك فلا يجب أن نستهين بأمر بعض الممارسات الطبية التى ظهرت فى عصر الرسول (ﷺ)، وأثبت الطب الحديث اليوم صحتها، ولا سيما التطبب بالأعشاب وعسل النحل، واللبن، والحبة السوداء... وغير ذلك خاصة والعالم ينادى اليوم بالعودة إلى العلاج بالمواد والأعشاب الطبيعية، والطب النبوى يقوم فى مجمله على العلاجات الطبيعية، والتى ثبت صلاحيتها للكثير من الأمراض المعاصرة، اللهم إلا بعض الأمراض الخطيرة التى ظهرت فى زماننا – بلاء من الله – كنتيجة لمعاصينا – وما أكثرها – وصدق معلم البشرية حينما قال: «... لم **تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشى فيهم الطاعون ولأوجاع التى لم تكن قضت فى أسلافهم الذين مضوا»**. (رواه ابن ماجة فى سننه).

فيجب أن نهتم بالممارسات الطبية النبوية، وأن نتعامل معها حتى من جهة صدق الإيمان والتبرك بالنبى (ﷺ) كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون، فتكون لها أثر عظيم فى النفع. وذلك لأن شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة، مشتملة على صلاح الأبدان كاشتمالها على صلاح القلوب، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها ودفع آفاتها بطرق كلية.

ومع ذلك فقد أوضح الرسول (ﷺ) أن الأمور الكونية تستند إلى علوم لا تدخل فى مهمة رسالته (ﷺ)، وإن كان يشملها بالتوجيه الخلقى الإنسانى الربانى حتى تستخدم هذه العلوم لمنفعة الإنسان وصالح الإنسانية ضمن الإطار الأخلاقى فقال (ﷺ) **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»**[64].

ومع ترغيب الإسلام فى العلم النافع، أقبل المسلمون بعد عهد النبوة والخلفاء الراشدين على علوم البلاد التى فتحوها، وكان الطب من أوائل العلوم التى اهتموا بنقلها، وذلك فى العهد الأقوى الذى دان للمسلمين فيه، نصف العالم آنذاك .

هوامش ومراجع الفصل التاسع

(1) د. محمود الحاج قاسم محمد، الطب عند العرب والمسلمين، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط الأولى، جدة 1987، ص 50.

(2) طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، ط الأولى، بيروت 1985، ص126 - 127.

(3) سورة الكهف، آية 85.

(4) سورة النجم، آيات 4، 5.

(5) صحيح البخارى بحاشية السندى، للعلامة المدقق أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، مطبعة دار إحياء الكتب العربية (د.ت)، جـ4، ص2.

وأيضا:

E.G. Brown. Arabian Medicine. Cambridge Univ. Press. 1962 "Prophtetic Medicine" p. 11 - 12.

(6) عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله (ﷺ) «أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى» رواه البخارى.

(7) عن عائشة رضى الله عنها أن الرسول (ﷺ) كان إذا أتى مريضاً أو أتى به قال: أذهب البأس رب الناس وأنت الشافى لا شفاء له إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما، رواه البخارى.

(8) جاء فى صحيح البخارى أنه لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة وعك أبو بكر وبلال رضى الله عنهما، فعادتهما عائشة رضى الله عنها، وقالت يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ ثم أبلغت الرسول (ﷺ) بما فعلت، فبارك صنيعها .

(9) عن أنس رضى الله عنه أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبى (ﷺ) فمرض فأتاه النبى (ﷺ) يعوده فقال أسلم فأسلم «رواه البخارى». وقال سعيد بن المسيب عن أبيه لما أحتضر أبو طالب جاءه النبى (ﷺ).

(10) رواه البخارى فى صحيحه.

(11) رواه البخارى فى صحيحه.

(12) ابن قيم الجوزية: الطب النبوى بالتعليق العلمى والطبى للدكتور عادل الأزهرى، والدكتور أحمد على الجارم، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ط الثالثة 1980، ص 79.

(13) ذات الجنب: هو مرض التهاب الرئة.

(14) قال ديسقوريدس: القسط ثلاثة أنواع: العربى، والهندى، والسورى، وخواصه أنه يجلو الكلف من الجلد، ويجفف القروح، ونافع من استرخاء العضل والعصب، وينفع من أوجاع الصدر، ويقوى الباه وينفع من وجع الرحم. (ابن سينا: القانون فى الطب، طبعة مؤسسة الحلبى عن طبعة بولاق القديمة، القاهرة بدون تاريخ، الكتاب الثانى ص 280).

(15) د. على محمد مطاوع، مدخل إلى الطب الاسلامى، رسالة الإمام، تصدرها وزارة الأوقاف، العدد الخامس 406 - 1985، ص 176.

(16) أول عميد لكلية طب الأزهر، وأنظر المرجع السابق، ص 176 - 177.

(17) يقول الطب الحديث إن ميكروب الطاعون موجود فى الفئران، وتأتى عدواه إلى الإنسان عن طريق البراغيث، لذلك غالباً ما يظهر فى القرى وفى التجمعات الكبيرة كما فى أوقات الحرب، وعادة ما يبدأ البرغوث بلدغ الساق ثم يتجه إلى الذراع ثم إلى الوجه، فتظهر أعراض الطاعون الرملى فى الرقبة وتحت الإبط، وفى الأوردة.

(18) سورة المائدة، آية 90.

(19) د. على محمد مطاوع، مدخل إلى الطب الاسلامى، ص 68.

(20) د. محمد سليمان داود، الطب عند المسلمين، مطبعة الهلال، الاسكندرية 1978، ص 5.

(21) رواه أبو داود فى سننه.

(22) رواه البخارى فى صحيحه.

(23) راجع، د. حسن الشرقاوى، الأخلاق الاسلامية، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1999، ص 91 - 92.

(24) ابن القيم، الطب النبوى، طبعة لجنة تراث وتاريخ دولة الإمارات، (د.ت)، ص 167.

(25) سورة البقرة، آية 172.

(26) سورة المؤمنون، من الآية 51.

(27) سورة الأعراف، من الآية 31 .

(28) سورة المائدة، من الآية 3 .

(29) د. على محمد مطاوع، مرجع سابق، ص 66 .

(30) نفس المرجع، ص 67 .

(31) ابن القيم، الطب النبوى، ص 189 .

(32) نفس المرجع، ص 170 .

(33) ذكر عبد الرازق، عن معْمَر، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: «أن امرأة يهودية أهدت إلى النبى (ﷺ) شاة مصليّة بخيبر، فقال: ما هذا؟ قالت: هدية. وحَذِرتْ أن تكون من الصدقة، فلا يأكل منها. فأكل منها النبى (ﷺ) وأكل الصحابة. ثم قال (ﷺ): أمسكوا. ثم قال للمرأة: هل سَمَّمت هذه الشاة؟ قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: هذا العظم - لساقها وهو فى يده - قالت: نعم. قال: لمِ؟ قالت أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم النبى (ﷺ) ثلاثة على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا، فمات بعضهم». وفى طريقة أخرى: واحتجم رسول الله (ﷺ) على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقرن والشفرة، وبقى بعد ذلك ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاه يوم خيبر، حتى كان هذا وان انقطاع الأبهر منى. فتوفى رسول الله (ﷺ) شهيداً (ابن القيم، الطب النبوى، ص 96 - 97).

(34) المرجع السابق، ص 174 - 175 .

(35) راجع، ابن القيم، الطب النبوى، ص 35 - 37 .

(36) جالينوس، حيلة البرء، نقلا عن ابن القيم، الطب النبوى. م.س، ص 25 .

(37) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(38) رواه البخارى.

(39) هامة: مفرد هام: وقد زعم العرب فى الجاهلية أن الهامة طائر يخرج من جمجمة القتيل، ثم يظل يصيح: اسقونى حتى يؤخذ بثأر ذلك القتيل. قال ذو الأصبع العدوانى:

يا عمرو، لا تدع شتمى ومنقصتى انظر حتى تقول الهامة : اسقونى

- انظر د. عمرو فروج: العرب فى حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين بيروت، ط الثانية 1968، ص 141.

(40) صفر: وقد زعموا أيضا أن العجائز يموتون فى شهر صفر.

(41) رواه البخارى فى صحيحه.

(42) رواه مسلم فى صحيحه.

(43) ابن القيم: الطب النبوى م،س، ص 136، 137. ويقول الطب الحديث: إن الجذام من الأمراض المزمنة التى يصاب بها الإنسان عن طريق نوع من البكتريا الباسيلية تعرف باسم «مايكوبكتريم ليبرا» وبمجرد دخول الميكروب إلى الجسم، فإنه يتوزع على أجزاء الجسم وأنسجته المختلفة. وتبدأ أعراض الإصابة بالجذام فى أحد شكلين.

الأول: تكون الإصابة فى بدايتها فى شكل بثرة مستديرة لها حواف، ثم يبدأ الجلد حولها بالاحمرار، وبعد فترة قصيرة تظهر بثور أخرى، ويتورم الجلد، ويبدو الوجه كأنه وجه أسد. وقد يصاب الأنف ببعض التشوهات.. وقد يعانى المريض من حمى وتورم المفاصل.

أما الشكل الثانى: فإنه يكون فى الأعصاب حيث تصبح سميكة، ويمكن الإحساس بها باللمس من فوق الجلد، ويبدو مكان الإصابة مخدرا عديم الإحساس خاصة فى الجانب الداخلى من الساعد، أما اليد والقدم، فإن الحركة فيهما تقل بدرجة كبيرة، وقد تتساقط الأطراف بعد امتصاص عظم الأصابع.

وهناك أيضا نوع ثالث من الإصابة يكمن فى تكون بثرة واحدة كبيرة، ويكون الجلد حولها باهت. وهذا النوع يشفى تلقائيا فى ٧٥٪ من الحالات. وغالبا ما يكون تشخيص الجذام بفحص إفرازات الأنف، أو بحكة الأورام الجلدية والبحث عن الميكروب المميز. ويحتاج المريض لعلاج يستمر لعدة سنوات حتى يشفى، وتستخدم لذلك بعض المضادات الحيوية مثل «الريفامبيسين». ومن الأمور البالغة الأهمية أن مريض الجذام يحتاج لعناية وفحوص مستمرة طوال حياته حتى بعد أن يشفى. راجع: داود الانطاكى، التذكرة بالاشراف العلمى والاعداد للدكتور سامى محمود، المركز العربى للنشر والتوزيع، بدون تاريخ ص 215 - 214.

(44) التيجانى الماحى: مقدمة فى تاريخ الطب العربى، مطبعة مصر بالخرطوم 1959، ص43.

(45) ابن القيم، الطب النبوى، ص 221 - 222.

(46) نفس المرجع، ص 67 - 77.

(47) رواه البخارى فى صحيحه.

(48) ابن القيم، الطب النبوى، ص 123.

(49) من جملة الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع:

أ- كتاب الطب النبوى للذهبى (الحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان). والكتاب مطبوع بمعرفة المطبعة اليمنية 1326هـ بهامش كتاب: تسهيل المنافع لابن الأزرق.

ب- الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية للحموى (علاء الدين الكحال) مطبعة الحلبى 1955م.

ج- الطب النبوى لابن القيم، مطبعة عيسى البابى الحلبى 1980م.

د- المصابيح السنية فى طب خير البرية لشهاب الدين أحمد القليوبى، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٨ طب.

(50) الحديث رواه البخارى، والبردة تعنى إدخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

(51) ابن خلدون: المقدمة، طبعة القاهرة القديمة بدون تاريخ ص 415، ص 494.

(52) ابن قيم الجوزية: الطب النبوى، م.س، ص 27.

(53) سورة النجم، آيات 4 .3.

(54) سورة النساء آية 122.

(55) روى البخارى فى صحيحه أن رجلا أتى النبى (ﷺ) فقال: أخى يشتكى بطنه، فقال أسقه عسلا، ثم أتى ثانية فقال أسقه عسلا، ثم أتاه فقال أسقه عسلا، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك أسقه عسلا، فسقاه فبرأ.

(56) داود الأنطاكى: التذكرة، إشراف د. سامى محمود، م.س، ص 256.

(57) يستعمل المرهم الآتى بنجاح فى المستشفيات الروسية لعلاج الجروح المستعصية التى فشل علاجها بالمضادات الحيوية، ويتكون من 80 جرام عسل نحل و20 جرام زيت كبد الحوت (زيروفورم) انظر المرجع السابق ص 261.

(58) ظهر من الأبحاث التى أجريتها جامعة بولونيا بإيطاليا أن الانتظام على تناول وجبات العسل يوميا قد يشفى المرضى المصابين بالتهاب الكبد المزمن أو التهاب الحويصلة المرارية .. وثبت أيضا أن للعسل تأثيرا مقويا للقلب، ولرفع الضغط المنخفض.. وقد عمل من العسل مرهم بإضافة 3٪ من السلفا إليه، واستعمل فى علاج قرح القرنية البطيئة الالتئام، وكانت النتائج مذهلة. المرجع السابق ص 268.

(59) نفس المرجع، ص 268.

(60) سورة النحل، آية 29.

(61) رواه البخارى.

(62) على الدجوى، موسوعات النباتات الطبية والعطرية، جزءان، مكتبة مدبولى 1996، جـ1، ص 357 - 358.

(63) د. شكرى إبراهيم سعد، نباتات العقاقير والتوابل.. دار الفكر العربى بدون تاريخ، ص102.

(64) الحديث رواه البخارى فى صحيحه.

الفصل العاشر

الطب فى الامبراطورية الأُموية



من الثابت ان نطاق الدولة الاسلامية قد أتسع اتساعاً شاسعاً فى عصر بنى أمية، الذى امتد نحو تسعين عاماً، من العام الأربعين إلى العام الثانى والثلاثين بعد المائة من الهجرة (40 - 132هـ) (660 - 750م). وكان من نتيجة ذلك ان عمت الأموال، وكثرت الثروات، وسادت الرفاهية، ليس بين الخلفاء والامراء فحسب، بل بين الرعية أيضا. ويكفى أن نذكر مثالا لهذه الحالة أن الرجل فى عهد الخليفة الورع «عمر بن عبد العزيز» كان يطوف «بصدقته أو زكاته فى الشام وأفريقية، فلا يجد مستحقاً لأخذها»[1].

فقد امتد مُلك الأمويين ما بين سمرقند واقاصى الاندلس، وكانت دمشق مناراً يشع بالعلم والحضارة فى أرجاء واسعة من العالم. وقد اهتم الأمويون بنقل العلوم القديمة من يونانية وفارسية وهندية إلى اللغة العربية، ووجدوا ضالتهم فى المدارس الكثيرة التى كانت منتشرة فيما بين النهرين والبلاد المجاورة. ونشأ عن ذلك كله جو فكرى جديد ومناخ روحى نشط. أجل لقد عُنى الأمويون بالعلوم المختلفة كالطب والكيمياء والنجوم والعدد.. فعملوا على ترجمتها إلى اللغة العربية. وهكذا قامت حركة نقل رائدة بدأها خالد بن يزيد بن معاوية الذى حُبست عنه الخلافة، وكان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً، مولعاً بالعلوم، وهو أول من أمر بترجمة كتب الصنعة (الكيمياء) إلى العربية، ولذا سموه حكيم آل مروان. كما أمر عمر بن عبد العزيز بترجمة الكتب الطبية، فترجم فى زمنه كتاب القس أهرن فى الطب من السريانية إلى العربية.. وتولى الترجمة ماسرجوية[2].

فالعصر الأموى وإن كان قريب من عصر النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدين، وكانت الحركة العلمية فيه منحصرة فى إتقان لغة القرآن، ومعرفة أحكام الشريعة، وما يتعلق بذلك من شعر وخطابة ورواية. فضلاً عن الاهتمام بصناعة الطب تأثراً بالطب الجاهلى، والطب النبوى، فإن ذلك الاهتمام بالطب قد امتد وازداد فى العصر الأموى، وابتدأ الطب العربى يتأثر بالاتجاه اليونانى، حيث بدأت بواكير حركة الترجمة والنقل من اليونانية إلى السريانية إلى العربية فى هذا العصر، وكان الطب من أوائل العلوم التى اهتم الخلفاء بنقلها.

ويمكن أن نشير إلى أشهر اطباء بنى أمية فيما يلى:

- ابن أثال:

أول ما يقابلنا من مشاهير الأطباء فى عصر بنى أمية، كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين فى دمشق، نصرانى المذهب. ولما ملك معاوية أبن أبى سفيان دمشق، اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً. وكان إبن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قواتل[3].

وقد روى إبن أبى أصيبعة أن ابن أثال كان مع مهارته فى الطب والمداواة، رجل سيئ الخلق، إذ أنه استغل ما يملكه من وسائل لإلحاق الضرر بالناس، مخالفاً بذلك قسم أبقراط ومسيئاً لهذه المهنة الشريفة. ومن الأدلة التى يذكرها إبن أبى اصيبعة[4] أن معاوية لما أراد أن يظهر العقد والولاية لابنه يزيد قال لأهل الشام: «إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه، ورق جلده، ودق عظمه، واقترب اجله، يريد أن يستخلف عليكم، فمن ترون؟». وكان معاوية يظن ويتوقع أن يقولوا: يزيدا. ولكنهم قالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فسكت معاوية وأضمرها. ثم دس ابن أثال الطبيب النصرانى إلى عبر الرحمن فسقاه سماً، فمات.

إلا أن النقد العلمي والتاريخى يصعب عليه تصديق هذه الرواية. ومن الممكن ان يقال إن معاوية الذى قاتل على بن ابى طالب فى صفين والجمل بغرض الفوز بالخلافة، من المتوقع أن يقتل من ينافس ابنه على الخلافة من بعده. لكن معاوية إبن أبى سفيان كان اكبر من ذلك . أضف إلى ذلك أن الأحداث التاريخية قد أكدت ان اليهود والنصارى هم الذين قتلوا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ثم اتهموا أبن أثال طبيب معاوية بغرض إثارة الفتنة بين المسلمين خاصة بعد إن أعلنوا معاوية باختيارهم لعبد الرحمن من بعده، وحينئذ يعتقد عامة المسلمين أن معاوية هو الذى دبر قتل عبد الرحمن ليفسح الطريق لابنه يزيد فى الخلافة من بعده.

- أبو الحكم الدمشقى:

طبيب نصرانى عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة. وكان معاوية بن أبى سفيان يستطبه، ويعتمد عليه فى تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه، نظراً لحذقه بأنواع العلاجات والأدوية المفردة والمركبة، وأمانته وإخلاصه فى صنعته. وكان معاوية يستأمنه على أهله، ومن ذلك أنه كلفه بمرافقة ابنه «يزيد» عندما سيّره أميراً على الحج إلى مكة[5].

ومما يروى عن أبى الحكم أن عبد الملك بن مروان قد مرض مرضه الأخير بحمه شديدة، فأتوا له بأبى الحكم الدمشقى ليعالجه، فنصحه بألا يشرب الماء قبل أن تنضج علته، وإلا مات. فأمسك عبد الملك عن الماء يومين، وفى اليوم الثالث دخل عليه ابنه الوليد بن عبد الملك، وفى وجه السرور والغبطة بموته، حتى يعتلى عرش الخلافة من بعده، فسأله عن حاله، فأجاب عبد الملك وحوله بناته يبكين:

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ... ومستخبرات والدموع سواجم

وكان استفتاحه الشطر الأول وهو موجه للوليد، ثم واجه البنات عند قوله الشطر الثانى، ثم دعا بالماء فشربه، فقضى من ساعته[6].

وإذا كان المقام هنا لا يعنى بسير الخلفاء، ولا بما توحى به دلائل سياسية، واجتماعية، وتاريخية معينة، إلا أننا أثرنا ذكر هذه الرواية لدلالتها القوية على براعة أبى الحكم الدمشقى كطبيب حاذق ذو خبرة طويلة تمكن صاحبها من التشخيص السليم للمرض، ووصف المناسب من العلاج والذى إذا امتنع المريض عنه، زهقت روحه بإذن الله. وهذا إن دل على شيئ، فإنما يدل على تقدم الطب كعلم فى القرن الأول للهجرة النبوية، أو بالأحرى إبان الخلافة الاموية.

- حكم بن ابى الحكم الدمشقى:

إبن أبى الحكم الدمشقى، تعلم الطب على أبيه، وكان يلحق به فى معرفته بالمداراة والأعمال الطبية والصفات البديعة[7] . واشتهر أمره فى دمشق، وقُرب

إلى عليه القوم ومما يحكى عنه أنه أنقذ رجلاً من الموت، كان الحجام قد فصده خطأ فى العرق الباسليق، واستطاع حكم أن يقطع النزيف من الشريان، وصار ماهراً فى هذه العملية وغيرها من مستلزمات الطب والجراحة، فضلاً عن إلمامه بأنواع المعالجات المختلفة. وكان لحكم عدد من التلاميذ فى مقدمتهم ابنه عيسى الذى تطبب على أبيه، وصار هو الآخر فاضلاً فى الطب والمداواة.

- ماسرجويه :

أو ماسرجيس، طبيب يهودى بصرى اشتهر أمره وزاع صيته فى الدولة الأموية، خاصة على أيام الخليفة مروان بن الحكم (64-65هـ) الذى قرّبه وصار طبيبه الخاص نظراً لما أبداه من مهارة فى تشخيص الأمراض، ووصف وتقديم العلاجات المناسبة.

وفضلاً عن كونه طبيباً فاضلاً، تولى ماسرجويه ترجمة كتاب «أهرن القس بن أعين» إلى اللغة العربية، وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة[8]، «ووجده عمر بن عبد العزيز[9] فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه فى مصلاه، واستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له ذلك أربعين صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه فى أيدهم»[10].

والجدير بالذكر أن هذا النص الهام الذى أورده ابن جلجل عن ترجمة ماسرجويه لكتاب كنّاش أهرن القس، قد اهتم به العلماء والمشتغلون بتاريخ العلم، وذلك لأنه يشير إلى قدم حركة ترجمة علوم الأمم الأخرى إلى اللغة العربية، ويشير أيضاً إلى وجود خزائن للكتب فى صدر الدولة الاسلامية.

وكان ماسرجويه ماهراً فى تشخيص الأمراض والوقوف على الحالة الصحية أيضا. يذكر إبن أبى أصيبعة[11] أن ماسرجويه كان ينظر يوما فى قواريره، فاتاه رجل قائلاً له: إنى بليت بداء لم يبل أحد بمثله. فسأله ماسرجويه عن دائه، فقال: أصبح وبصرى علىّ مظلم، وأنا أجد مثل لحس الكلاب فى معدتى، فلا تزال هذه حالى حتى أطعم شيئا، فإذا طعمت، سكن عنى ما أجد إلى وقت انتصاف النهار،

ثم يعاودني ما كنت، فإذا عاودت الأكل، سكن ما بي إلى وقت صلاة الغمة، ثم يعاودني فلا أجد له دواء، إلا معاودة الأكل. فقال ماسرجويه: وددت أن هذا الداء يحوّل إليّ وإلى صبياني، وكنت أعوضك مما نزل بك منه مثل نصف ما أملك، فقال له: ما أفهم عنك؟ فقال ماسرجويه: هذه صحة لا تستحقها، أسأل الله نلقها عنك إلى من هو أحق بها منك.

ولماسرجويه من الكتب: كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها. كتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها[12]. كتاب في العين[13]. وقد ذكر الأب بول سباط في ملحق فهرسته ص 60 كتاباً آخر لماسرجويه يدعى «كتاب في الشراب»[14].

- **تياذوق:**

كان في أول دولة بني أمية، طبيباً فاضلاً مشهوراً، له نوادر وألفاظ حسنة في صناعة الطب. صحب الحجاج بن يوسف الثقفي - الذي ولاه عبد الملك بن مروان -، وخدمه بالطب، وكان الحجاج يعتمد عليه ويثق في مداواته. ومن نصائح تياذوق للحجاج: لا تنكح إلا شابة، ولا تأكل من اللحم الا فتياً، ولا تشرب الدواء إلا من علة، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها. وامضغ الطعام جيدا. وإذا أكلت نهاراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة.. ولا تأكل حتى تجوع ولا تتكارهن على الجماع. ولا تحبس البول. وخذ من الحمام (الاستحمام) قبل أن يأخذ منك. وقال أربعة تهدم العمر: دخول الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف. وشرب الماء البارد على الريق[15].

واضح أن هذه الوصايا لا يوصى بها إلا طبيب ماهر مجرب، ذو خبرة بأمور الطب والمعالجة. وتتضح أهمية هذه الوصايا، وأهمية صاحبها كطبيب عربي، من أنها جميعاً تتفق مع ما هو معمول به في الطب الحديث، اللهم إلا الوصية الأخيرة والتي أوصى فيها تياذوق: بعدم شرب الماء البارد على الريق. فقد أثبت الطب الحديث أن الماء مليئ بالعناصر الغذائية التي يحتاجها الجسم، وعلى ذلك يكون

شربه فى أى وقت ضرورى ومفيد للجسم. كما أن شرب الماء على الريق مفيد لأنه ينبه المعدة ويجعلها تستعد لاستقبال الطعام. والخلاصة أنه يجب على الانسان أن يشرب الماء كلما أحس بالعطش، على الريق كان، أم على غيره.

ولما شاخ تياذوق وكبر سنه، وخشى أن يموت ولا يعتاض عنه، لأنه كان أعلم الناس وأحذق الأمة فى وقته بالطب، قال له أحد الملوك: صف لى ما اعتمد عليه فأسوس به نفسى، وأعمل به أيام حياتى، فلست آمن أن يحدث عليك حدث الموت، ولا أجد مثلك. فقال تياذوق: أيها الملك بالخيرات، أقول لك عشرة أبواب إن عملت واجتنبتها لم تعتل مدة حياتك، وهذه عشر كلمات: 1- لا تأكل طعاماً وفى معدتك طعام. 2- لا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه. 3- لا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء على الطعام. 4- عليك بدخول الحمام مرة كل يومين على الأقل، فأنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء. 5- أكثر الدم فى بدنك تحرص به نفسك. 6- عليك فى كل فصل قئية ومسهلة. 7- لا تحبس البول وإن كنت راكبا. 8- اعرض نفسك على الخلاء قبل نومك. 9- لا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة. 10- لا تجامع العجوز فانه يورث الموت الفجأة. فلما سمع الملك ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر، ويضعه فى صندوق من ذهب مرصع.، وبقى ينظر إليه فى كل يوم ويعمل به، فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت الذى لابد منه ولا محيص عنه[16].

وليتاذوق من الكتب: كتاب كبير ألفه لابنه، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقها وايقاعها واذابتها، مع شيئ يسير من تفسير أسماء الأدوية.

- زينب الطبيبة :

ولم تقتصر ممارسة الطب والمداواة على الرجال فى الدولة الاموية، بل كان هناك من النساء من أجدن واحترفن الطب كمهنة. وكانت أشهرهن، الطبيبة زينب، طبيبة بنى أود، كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة

الأمراض، وخاصة أمراض العين، وجراحات الجسم، وكانت مشهورة بين العرب بذلك. وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» أن رجلاً أتى امرأة من بنى أود لتكحله من ركد كان قد أصابه، فكحلته، ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء فى عينيك، فاضطجع الرجل، ثم قالت المرأة:

أمخترمى ريب المنون ولم أزر طبيب بنى أود على النأى زينبا

ثم قالت للرجل: أتدرى فيمن قيل هذا الشعر؟ قال: لا! قالت: فىّ والله قيل، وأنا زينب التى عناها، وأنا طبيبة بنى أود. افتدرى من الشاعر؟ قال الرجل: لا! قالت: عمك أبو سماك الأسدى[17].

تلك كانت صورة موجزة للطب والأطباء فى عصر بنى أمية، رأينا خلالها كيف اهتم أولى الأمر منهم بتشجيع الأطباء ضمن اهتمامهم بالحركة العلمية عموما. فاجتهد الأطباء وحاولوا الارتقاء بعلم الطب عماكان عليه عند اسلافهم فى الجاهلية وعصر النبوة. وكانت نتيجة ازدهار الطب فى الدولة أن ظهرت المؤلفات الطبية والعلاجية، والتى تحوى عدداً كبيراً من الأمراض وكيفية مداواتها. كما عرف الامويون البيمارستانات (المستشفيات) بمعناها الصحيح، وكان الوليد بن عبد الملك أول من بناها فى الاسلام، وجعل فيها الأطباء، وخصص لهم الرواتب، وأمر بعزل المجذومين وغيرهم من أصحاب الامراض المعدية. كما اهتم بالعميان والقواعد من الرجال والنساء.

تلك كانت حالة العرب فى الدولة الأموية. فلما أقال الله تعالى تلك الدولة للهاشمية (العباسيين)، كان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، فكان مع براعته فى الفقه، متقدماً فى الفلسفة والنجوم، كلفاً بها وبأهلها[18].

أما عن الطب فقد ازدهر فى دولة بنى العباس ضمن الحركة العلمية المشهورة على أيامهم، وذلك بفضل تشجيع ورعاية الخلفاء للعلم والعلماء. وقد أورد إبن أبى أصيبعة ثبتاً طويلاً للاطباء الذين كانوا فى ابتداء ظهور الدولة العباسية يحتوى

على ثمانية وثلاثين اسم طبيب برعوا فى التطبب، بالإضافة إلى إسهام بعضهم فى حركة نقل التراث الطبى اليونانى إلى اللغة العربية عبر اللغة السريانية التى كانت اللغة الأصلية للبعض منهم. ومن أشهر هؤلاء: جورجيس بن جبرائيل، وبختيشوع ابنه، وجبرئيل بن بختيشوع، وماسرجويه متطبب البصرة، وماسويه بن يوحنا، ويوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحق. وابنه اسحق، وحبيش الأعسم.. وغيرهم.

إلا أن اشهر وأعظم الأطباء الذين ظهروا وبرعوا فى أيام العباسيين أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، طبيب المسلمين بغير مدافع. ونظراً لمكانته المرموقة على مستوى تاريخ العلم العربى، وتاريخ العلم العالمى، فقد خصصنا كتاباً مستقلاً، صدرت طبعته الأولى عن دار ملتقى الفكر بالاسكندرية سنة 1999.

ويعتبر ازدهار الحركة العلمية على أيام العباسيين أثراً من آثار حركة الترجمة والنقل التى بلغت ذروتها فى العصر العباسى الثانى. ومن ثم فان حركة الترجمة إنما تعد من أهم الأسس المعرفية التى أدت إلى ازدهار الحركة العلمية ومن بينها علم الطب فى المجتمع الاسلامى. لذا فقد خصصنا لها الفصل القادم والأخير من هذا الكتاب.

هوامش ومراجع الفصل العاشر

(1) د. عمر فروخ، العرب فى حضارتهم وثقافتهم، م.س، ص 176 .

(2) راجع، د. مرحبا، مرجع سابق، ص 244 - 245 . وأيضاً الفصل الخاص بحركة الترجمة من هذا الكتاب.

(3) إبن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص 171 .

(4) نفس المرجع، ص 172 .

(5) نفس المرجع، ص 175 .

(6) نفس المرجع، ص 176 .

(7) القفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 211 .

(8) القفطى، الأخبار، ص 213.

(9) الخليفة عمر بن عبد العزيز اتقى خلفاء بنى أمية، عُرف بتقواه وتمسكه بالسنة، وعدله، حتى قيل إن الزكاة جُمعت فى عهده ولم يجدوا فقيراً يستحقها. كما أبطل لعن على كرم الله وجه الذى سنّه معاوية ابن أبى سفيان.

(10) إبن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص 61.

(11) إبن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص 233 بتصرف.

(12) القفطى ، الأخبار، ص 130 ، إبن النديم الفهرست، ص 413.

(13) إبن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص 234 .

(14) فؤاد سيد فى تحقيقه لكتاب طبقات الحكماء لابن جلجل، هامش ص 61 .

(15) ابن أبى اصيبعة، عيون الانباء، 179 .

(16) نفس المرجع، ص 180 .

(17) نفس المرجع، ص 181 .

(18) صاعد الاندلسى، طبقات الأمم، ص 55 .



الفصل الحادى عشر
حركة الترجمة وأثرها فى
تطور علوم الحضارة العربية الاسلامية



– مدخل :

أغلق الإمبراطور «جوستنيان» مدرسة الإسكندرية فى أوائل القرن السادس الميلادى، واضطهد العلماء والفلاسفة، ففروا من الإسكندرية إلى «الرها» و«نصيبين» و«أنطاكية» و «جنديسابور» وغيرها من المدن الواقعة بين بلاد الشام وبلاد فارس والعراق، وهناك شكلوا جماعات ومدارس علمية تحولت فيما بعد إلى أكاديميات كما هو الحال فى أكاديمية جنديسابور.

وبعد مجئ الإسلام انفتح المسلمون فى عصرهم الأول على مدينة جنديسابور باعتبارها مجمعاً علمياً وطبياً مهماً، كما انفتحوا على الإسكندرية وكانت مركزاً علمياً وطبياً مرموقاً. ومن هنا وهناك جاءت عوامل وأسباب التطور[1] عن طريق حركة الترجمة والنقل، حيث أقدم السريان على عملية نقل المؤلفات والمخطوطات اليونانية التى انتقلت إلى الإسكندرية فى عصرها الذهبى، والمؤلفات التى وضعها علماء الإسكندرية، من خلال عملية منظمة للترجمة تمت فى المجامع السريانية من اللغة اليونانية إلى السريانية.

وكانت هذه الخطوة بمثابة المجرى الحيوى والضرورى الذى وصل العالم القديم (ما قبل الإسلام) بالعالم الحديث (الذى ظهر بعد الإسلام).

وما أن انطلق العرب شرقاً وغرباً لنشر الدعوة الإسلامية، حتى تكامل مع هذه الإنطلاقة توجه أكيد إلى علوم الحضارات القديمة، فكان أن انطلقت أكبر حركة علمية للترجمة فى العالم الإسلامى، حيث تكاتفت من خلالها أجناس مختلفة (السريان، والمسيحيون، واليهود، والصابئة) جنبا إلى جنب مع الفرس والمسلمين.

ولكن قد يتبادر إلى الأذهان تساؤل مضمونه: هل يعد النقل فى تلك الفترة هو بداية اتصال المسلمين بثقافات وعلوم الحضارات القديمة؟

قبل أن نجيب على هذا التساؤل ونعرف أبعاده المعرفية، قد يكون من الضرورى أن نلقى الضوء على الموقف العلمى الذى وجده المسلمون وقت دخولهم

فى الميدان العلمى كنوع من السباق الحضارى، ولتأسيس حضارة جديدة تعتمد على العلم بقدر ما تعتمد على الدين.

إن انتشار المسيحية فى الأديرة الموجودة فى شبه الجزيرة العربية، وكذلك فى المناطق القريبة من شبه الجزيرة العربية فى شمال العراق وجنوب بلاد فارس، وما كان يقوم حولها من جدل فلسفى يمس صميم العقائد، وانتقال مدارس الفلسفة إلى فارس القديمة، ثم فتح العرب لفارس والشام، كل هذا هيأ نوعاً من الاتصال المباشر بين العرب وبين ثقافات البلدان التى فتحوها قبل عصر الترجمة الرسمى بفترة طويلة. إذ اتصل العرب بالرهبان فى الأديرة واستمعوا إلى مناقشاتهم وتأثروا بما فى حياتهم من زهد وتقشف، وكان لذلك أثره الواضح على حركة الزهد والتصوف الاسلامى، وبصفة خاصة فى الفترة الأولى التى تعرف بفترة الزهد، وذلك قبل عصر الترجمة[2].

أما حركة الترجمة نفسها فقد بدأت أيضاً فى وقت مبكر ودلالة ذلك ما يذكره ابن جلجل[3] من أن الطبيب اليهودى «ماسر جويه» قد ترجم للخليفة عمر بن عبد العزيز كناش «أهرن القس» من السريانية إلى العربية[4].

ويذكر أيضا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد وجد هذا الكناش فى خزائن الكتب. وهذا دليل على قدم حركة الترجمة والاهتمام بالعلم، والذى تمثل فى وجود خزانات للكتب فى صدر الدولة الإسلامية.

وترجع بعض الكتابات القديمة والحديثة أيضاً مسألة نقل علوم وثقافات الحضارات القديمة إلى العرب للإسهامات التى قام بها الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ / 704م) الذى فقد أمله فى الخلافة، فتحول إلى علوم الصنعة، إذ يذكر صاحب الفهرست[5] أن «خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً فى نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة.

وفى المؤلف الذى عنى بإخراجه الأساتذة هولت ولامبتون وبرنارد لويس، . نجد أن التصور الغربى يتفق مع رؤية ابن النديم حول ما ذكره عن خالد بن يزيد واهتمامه بحركة نقل العلوم. وفى هذا يتفقون مع ما يذكره ابن النديم فى قوله الذى يقرر فيه: ،وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم النقل فيها فى تاريخ الإسلام، . ولكن هذا التأكيد يأتى مواكباً للاتصالات التى قام بها خالد فى محيط البيئة الجديد. ومن هذا أنه إذا كان قد اهتم بترجمة العلوم فإنه ،يجب أن يكون قد تعلم الكيمياء فى الإسكندرية على يد مريانوس الذى كان بدوره تلميذاً للكيميائى السكندرى ستيفانوس،[6].

لكن مع بداية القرن الثانى الهجرى أخذت حركة الترجمة شكلاً شبه منتظم، ولم تقتصر على نقل علوم اليونان، بل أقبل المترجمون على النقل من أمم أخرى لاسيما الفرس. فبعد أن نقلت الكتب الكيميائية من اليونانية إلى العربية، تم ،نقل الديوان، وكان باللغة الفارسية إلى العربية فى أيام الحجاج. والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم،[7].

وفى أيام الرشيد (180 - 193 هـ / 786 - 808م) أقبل العرب على الترجمة، حتى إذا جاء عهد المأمون (168 - 218هـ/ 813 - 833م) كانت هذه الحركة قد بلغت ذروتها. حيث ازدادت الترجمة عن اليونانية ازدياداً عظيماً، وتم نها الانتقال من الترجمة الحرفية التى تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى الترجمة النصيّة بالمعنى الدقيق. وهذا هو السر فى أننا نجد كثيراً فى ترجمات المترجمين إعادة لترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر من مترجمى العصر العباسى الأول[8].

وكان الطب من أوائل العلوم التى عنى المترجمون السريان واليعاقبة والنساطرة واليهود بنقلها إلى اللغة العربية، لأن الخلفاء والأمراء كانوا يطلبونها بإلحاح لعلاجهم وتمريضهم.

ولهذا كان أوائل الأطباء من هذه الأجناس التى تصدوا لتعريف العرب

بالكتب الطبية، ومنهم حنين بن اسحق، وماسرجويه، ويوحنا بن ماسويه، وحبيش بن الأعسم.... وغيرهم مما سيأتى ذكرهم.

وقد توالت ترجمة الكتب غير الطبية فيما بعد، بعد أن شعر المسلمون بأنهم فى حاجة إليها فى ثقافتهم الإسلامية الجديدة.

فتم ترجمة الأعمال العلمية والفلسفية الموروثة من القدم والتى تمثل من وجهة نظر تاريخ الفكر إحدى العلامات المميزة والأكثر أهمية فى الثقافات العربية الإسلامية[9].

والتساؤل الآن عن الكيفية أو الجسر الذى عبرت عليه ثقافات وعلوم الأمم الأخرى إلى العالم الاسلامى؟

الواقع أن المناطق المجاورة للعالم الإسلامى آنذاك قد لعبت دوراً مهماً فى حركة الترجمة وآثارها على العالم الإسلامى بصفة عامة فيما بعد. فقد كان لمراكز ومعاهد الإسكندرية ونصيبين وقنسرين والمدائن وجنديسابور وحرّان دور بارز فى نشأة علوم الحضارة الإسلامية، حيث كانت مناطق احتكاك واتصال مباشر بالمنطقة الإسلامية.. وكانت علوم تلك المراكز عصارة عقول الحضارات القديمة من بابليين وآشوريين، وفينيقيين، ومصريين، وهنود، وفرس، ويونان، ورومان.

وكانت هناك مدارس فى أديرة تلك المناطق واسمها بالسريانية «أسكول» المأخوذ من اللفظ اليونانى "O)(O h η" ومنه صنع العرب لفظ «أسكول» الذى يدل على مدرسة مسيحية، أو مدرسة ملحقة بدير. والغالبية العظيم من هذه المدارس كانت لاهوتية دينية. لكن كان يسمح فى الكثير منها بدراسة العلوم الدنيوية وهى النحو، والبيان، والفلسفة، والطب، والموسيقى، والرياضيات، والفلك.

وقد اقتصر التعليم الفلسفى فى جوهره على بعض أجزاء المنطق الأرسطاليسى، والتعليم الطبى على أمهات مؤلفات أبقراط وجالينوس.

ويظهر أن أهم موضع عنى فيه بالعلوم اليونانية فى مدارس تلك الأديرة كان مدرسة دير القديس افثنيوس فى قنسرين بسوريا، إلا أن ازدهارها كان فى العصر الإسلامى[10]. وعلى سبيل المثال نجد أن التعاليم الهيلينية للإسكندرية انتقلت على يد الطوائف المسيحية المتعددة (النساطرة واليعاقبة أساساً)، واستمر المسيحيون السوريون فى رعاية الآثار المتبقية من التعاليم اليونانية، ومن خلالهم أصبح العرب - بحق الفتح - ورثة هذا التراث[11].

لكن الجدير بالنظر أن مدارس تلك المراكز المتعددة لم تستطع أن تنتج عدداً ملحوظاً من الفلاسفة أو العلماء ذوى المواهب الممتازة، أو أن تنتج كتباً وأبحاثاً ذات قيمة خالدة، وكل ما قدمته هذه المدارس للإنسانية هو أنها احتفظت ببيئة يدب فيها النشاط العقلى والفكرى.. وبذلك فإن هذه المدارس قدمت البيئة الخصبة التى استطاع المسلمون أن يؤسسوا من خلالها علوماً فلسفية ودينية وطبية ورياضية وغيرها، وأن يحملوا منها علوماً مزدهرة عميقة الجذور[12] نقلها كثير من المترجمين - خاصة السريان - الذين تعلموا وعاشوا فى هذه المراكز.

ونأتى الآن إلى تساؤل منهجي آخر مؤداه: ما هى الدوافع التى دفعت المسلمين فى تلك الفترة دون غيرها إلى «التعرف على» ونقل علوم الأمم الأخرى؟

نشير هنا أولاً إلى أننا نستخدم التعبير «التعرف على» بصورة لا ترادف التعبير «نقل علوم الأمم الأخرى». إن مسألة التعرف تقتضى الفهم والمعرفة، والإحاطة بجوانب العلم الذى يتم التعرف عليه، وإدراك جوانبه، وفهم أبعاده. وهذه عملية معرفية تدخل ضمن إطار الموقف الإبستمولوجى بصورة أساسية. فى حين أن «نقل» العلوم قد يتم بصورة آلية على يد مترجم ليست له خبرة أو دراية بأكثر من عملية الترجمة، كما قد يتم على يد مترجم خبير بالموضوع، ومن ثم فإن النقل يستلزم فى تصوره الثانى الخبرة بالموضوع، فى حين أن «التعرف على» موضوع من الموضوعات وفهمه لا يستلزم نقله.

ونعود إلى التساؤل الذى طرحناه من قبل حيث تكمن إجابته فى نقاط محددة فيما يلى:

1- لقد واجه المسلمون فى العصر الأول مشكلات لم تكن راجعة إلى الإسلام ذاته، وإنما أُثيرت من اليهود والمسيحيين، وهؤلاء كما نعلم كانوا يتقنون فن الجدل والنقاش، لأطلاعهم على كتب الفلسفة والمنطق، والتى لم يكن للمسلمين عهد بها قبل ذلك وكان من بين المشكلات التى اندفع المسلمون إلى مناقشتها: القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وحرية الإرادة[13].

فرجحت عند قوم عقيدة الجبر، وعند آخرين عقيدة الاختيار، وتجادل المسلمون فيما بينهم، ثم تجادل المسلمون والنصارى واليهود: أى الاديان خير؟ وأى آراء الأديان فى المسائل الجزئية أصح؟ وكان المعتزلة يحملون لواء الدفاع عن الإسلام، ومقارعة خصومه، وكان من اليهود والنصارى من تسلح من قبل بالمنطق اليونانى، والفلسفة اليونانية، ويستخدمها فى أمور الجدل والحوار، فأحسّ المسلمون أنه لابد من محاربتهم بأسلحتهم، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها فى أغراضهم، وبينما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة، فبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية فى نفسها تطلب لذاتها[14].

2- كان لتشجيع خلفاء الدولة العباسية لحركة الترجمة الدور البارز فى إنمائها وتقدمها ونجاحها. فلقد مال أفراد من الخلفاء فى العصر العباسى إلى العلوم الفلسفية، والخلفاء عادة أقدر الناس على الترغيب فيما أحبوا. والناس أسرع ما يكون إلى تحقيق أغراضهم. وكان أكثر الخلفاء العباسيين ميلاً إلى ذلك؛ المنصور والرشيد والمأمون. فالأول طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه ما عنده من مخطوطات وكتب يونانية فأرسلها إليه. أما الرشيد فقد رباه البرامكة على حب العلم. والمأمون رباه الرشيد والبرامكة، وكان يفضل الكتب العلمية عن الجزية فى البلاد التى يفتحها، ومن ذلك أنه عندما انتصر على الروم عام 215 هـ / 830 م على أن اليونان حينما انتشرت النصرانية

فى 173 بلادهم قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات وألقوا بها فى السراديب، فطلب المأمون من ملك الروم أن يعطيه هذه الكتب بدلاً من الغرامة التى فرضها فقبل «ثيوفيلوس» ملك الروم بذلك، وعده كسباً كبيراً له. أما المأمون فعد ذلك نعمة عظيمة عليه[15].

وقد حذا حذو الخلفاء كثير من أفراد الاسر النبيلة مثل بنى موسى بن شاكر.

هناك أيضاً خلفية تاريخية دفعت العباسيين إلى الأهتمام بهذه المسألة، فالدولة العباسية، وإن كانت عربية الأصل ترجع أصولها إلى العباس عم النبى (ﷺ)، إلا أنها قد اشتملت على عناصر أخرى غير عربية، لاسيما العنصر الفارسى. وكان للفرس ثقافة قديمة، الأمر الذى كان له أثره فى إقبال العباسيين على العلم والاستزادة منه، فبذلوا كل ما فى وسعهم لتشجيع العلماء والمفكرين، لنقل الثقافات الأجنبية فى ميادين الأدب، والسياسة، والطب، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والفلك. كذلك فإن العباسيين لم يهتموا كثيراً بجنسية المترجم، وإنما كانوا يسألونه الدقة، لأن الغرض الأساسى هو الحصول على المعرفة والعلم[16].

تلك كانت أهم الدوافع والأسباب التى دفعت المسلمين إلى الإقبال على ترجمة علوم الأمم الأخرى. وهى على ما نرى دوافع وأسباب منطقية يقبلها العقل، وتختلف عما ورد فى بعض كتب التراث من أسباب ودوافع بعيدة عن العقل والمنطق فضلاً عن السياق التاريخى للأحداث[17].

ولقد نشطت حركة الترجمة نشاطاً ملحوظاً فى العصر العباسى الثانى، فكانت واسعة النطاق وشملت ما أنتجه الأقدمون من فلسفة وعلم؛ ولم يمض زمن طويل على تأسيس بغداد حتى كان العرب يقرأون بلغتهم معظم ما كتبه أرسطو، وما نسب إليه، ككتاب علم المعادن واستخراجها، والميكانيكا، والإلهيات. كما كان العرب يقرأون بلغتهم أكثر مؤلفات أفلاطون،

والأفلاطونية الحديثة. وأهم ما كتبه أبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس وغيرهم من الكتّاب والشراح، ولم يقفوا عند علوم اليونان، بل تجاوزوها إلى الترجمة من الفارسية والهندية(18). ولكن السؤال الآن هو: كيف تعرّف المسلمون على علوم الحضارات الأخرى؟ وما هى الصورة التى ارتسمت فى أذهانهم عن تلك العلوم، أو ما عُرف باسم علوم الأوائل؟

1- علوم اليونان:

يمكن التعرف بصورة موجزة على علوم اليونان التى نُقلت إلى العالم الإسلامى من خلال الإشارة إلى دور السريان فى حركة الترجمة، ثم يأتى ذكرها ثانية بصورة تلقائية عند الحديث عن جماعات الترجمة فيما سيأتى:

لقد كان للسريان دور واضح وملموس باعتبارهم حلقة من حلقات السلسلة التى انتقل عبرها التراث من اليونان القديمة إلى المسلمين، فقد قاموا بترجمة كثير من الكتب والمؤلفات الهامة من اليونانية. ونحن نعلم أن المجامع العلمية والفكرية التى تكونت فى مناطق الاتصال بين المسلمين واليونانيين كانت بحاجة إلى جو من التسامح الفكرى والعلمى بعد ما تعرض له العلماء والمفكرون من اضطهاد فى ظل الحكم الرومانى، وكان الدين الإسلامى الجديد يدعو للتسامح وحرية ممارسة الفكر والبحث العلمى، فمارس العلماء والمفكرون حريتهم الفكرية كما يشاؤون ولم يتعرضوا لأنواع الاضطهاد والتنكيل كما حدث لهم من جانب الرومانيين[19].

وقد وجه السريان عنايتهم إلى مؤلفى الرياضيات والفلك والطب من اليونان، كما وجهت عنايتهم بالمثل إلى الفلاسفة اليونانيين. وكانت هذه الفروع من التعاليم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدراسات اللاهوتية، ذلك لأن العلم والفلسفة اليونانيين قد قدما التعليل التصورى العقلى، حيث وجد فيه لاهوت هذه الكنائس صياغته الواضحة. وكان الطب على وجه الخصوص بمثابة جسر بين العلوم واللاهوت وكان كثير المسيحيين السريان قد تم إعدادهم على أنهم أطباء بدن وأطباء روح بالمثل. وقد كان المنطق جزءاً لا يتجزأ من منهاج تعليم الدراسات الطبية، كما كان سائداً فى الإسكندرية بنفس الطريقة التى أوصى بها جالينوس[20].

ومن النقلة السريان يذكر ابن النديم[21] أسماء كثيرة كان أبرزهم على الإطلاق حنين بن إسحق الذى شكّل جماعة علمية ضمت اسحق بن حنين، وحبيش بن الأعسم.. وغيرهم، كان لها الفضل فى نقل الكثير من علوم اليونان

إلى العالم الإسلامى. - وسوف نتعرض لبنية تلك الجماعة بعد قليل -. ومنهم أيضاً ثابت بن قرة الحرّانى، وعيسى بن يحى، وأبو عثمان الدمشقى، وإبراهيم بن أبى الصلت، ويحيى بن عدى، والتفليسى، وأيوب بن أبى القاسم الرقى نقل من السريانى إلى العربى، ومن نقله، كتاب ايساغوجى. ومنهم دار يشوع، كان يفسر لإسحق بن سليمان الهاشمى من السريانية إلى العربية. ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكى، جيد النقل فصيح باللسان اليونانى والسريانى والعربى معاً، وقد نقل أشياء، وأصلح نقولات كثيرة.

ومما هو جدير بالملاحظة أنه بالرغم من أن أعمال الترجمة قد تم معظمها على يد المسيحيين السريان، إلا أن عدداً كبيراً من الترجمات قد كان من الإغريقية مباشرة على يد قوم درسوا هذه اللغة فى الإسكندرية، أو بلاد الأغريق. وكثيراً ما وضع المترجم نفسه ترجمتين من الأغريقية: إحداهما بالسريانية، والأخرى بالعربية.

وكان ثمة مترجمون من السريانية، ولكن هؤلاء يأتون عادة بعد المترجمين من الإغريقية. ومن بين المترجمين النّساطرة من السريانية أبو بشر متى بن يونس (ت 338هـ/ 949م) والذى ترجم إلى العربية القياس والشعر لأرسطو، وتعليقات الإسكندر الأفروديسى على الكون والفساد، وتعليق ثامسطيوس على الكتاب الثلاثين من الميتافيزيقا، وكلها ترجمت من نسخ سريانية موجودة، ولقد وضع كذلك تعليقات أصيلة على مقولات أرسطو، وعلى إيساغوجى وفورفوريوس[22]. أما المترجمون اليعاقبة[23] فيأتون بعد النّساطرة، ومن بين الذين ترجموا منهم من السريانية إلى العربية يحيى بن عدى التكريتى المتوفى عام 364هـ/ 964م. فقد راجع كثيراً من الترجمات الموجودة ووضع ترجمات للمقولات والسفسطة والشعر والميتافيزيقا لأرسطو. كما ترجم لأفلاطون القوانين وتيماوس، وكذلك تعليقات الإسكندر الأفروديسى على المقولات، وتعليقات ثيوفراسطوس على الأخلاق. أما اليعقوبى أبو على عيسى بن زرعة المتوفى عام 398هـ/ 1007م، فقد ترجم

المقولات والتاريخ الطبيعى وأعضاء الحيوان مع تعليق يوحنا فيلوبونوس، أو يحيى النحوى.

ومع أن السريان (نساطرة ويعاقبة) قد بذلوا مجهوداً ضخماً فى ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية، إلا أنهم قد نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة، ونقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة، مثل كتاب الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث فى النفس والإنسان تمزج بقصص كثيرة وبقواعد فى السياسة والصحة والتغذية. على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية[24]. كما أن ترجماتهم كان يشوبها الضعف والخروج على قواعد اللغة العربية فى كثير من الأحيان، مما جعل مراجعة هذه الترجمات التى تمت على يد السريان فى حاجة إلى مراجعة على يد مفكرين ومترجمين عرب، وغير عرب، وكان الكندى مشرفاً على كثير من الترجمات.

2- علوم الفرس:

كان للفرس – من قديم – علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظمة سلطانهم.. كان لهم كتب فى التنجيم والهندسة والجغرافيا، وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم. ولكن كانت مدنيتهم فى حياة وعظمة؛ إذ كانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم. وأكبر نكبة عرّتهم كانت بفتح الإسكندر الأكبر لبلادهم، وقد تلف فى هذا الحرب كثير من خزائن كتبهم. فلما جاءت الدولة الساسانية (226 - 652م) استعادوا أدبهم وعلمهم.

وأظهر ملوكهم فى الميل إلى العلم، وتشجيع الترجمة والتأليف أردشير بابك (226 - 241م) فقد بعث فى طلب الكتب من الهند والروم والصين. كذلك كان الشأن فى عهد ابنه سابور، وعهد كسرى أنوشروان.. فلما جاءت الدولة العباسية – وكثير من رعاياها فرس – أخذ المثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم وما حفظته العصور إلى عهدهم[25]. ومن المؤلفين الفرس: يزدجرد بن مهنبدان الكسروى فى أيام المعتضد، وله من الكتب كتاب فضائل بغداد وصفتها، كتاب الدلائل على التوحيد من كلام الفلاسفة[26].

ومن القصاص موسى الأسوارى وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرآ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأى لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان «موسى بن سيار الأسوارى. ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار»[27].

ومن أشهر تراجمة الفرس، عبد الله بن المقفع[28] كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة كاتباً وشاعراً فصيحاً.. وكان أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى، مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما[29]. ألفاظه حكيمة ومقاصده من الخلل سليمة. وهو

أول من اعتنى فى الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبى جعفر المنصور. كما ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة، وهى: كتاب قاطيغورياس، وكتاب بارى أرمنياس، وكتاب أنالوطيقا. وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكتاب كليلة ودمنة. وله تآليف حسنة منها: رسالته فى الأدب والسياسة، ورسالته المعروفة باليتيمة فى طاعة السلطان[30].

وترجم أيضاً كتاب خدينامة فى السير (تاريخ ملوك الفرس). كتاب آمين نامة (العرف والعادات والنظم والشرائع). كتاب مزدك (سيرة مزدك): كتاب التاج فى سيرة أنوشروان، كتاب الآداب الكبير يُعرف بما قرأ حسيس. كتاب الأدب الصغير. كتاب اليتيمة فى الرسائل[31].

ومنهم الفضل بن نوبخت، أبو سهل الفارسى كان فى زمن الرشيد وولاه خزانة كتب الحكمة. وكان ينقل من الفارسى إلى العربى ما يجده من كتب الحكمة الفارسية. وله من التصانيف: كتاب البهطمان فى المواليد. كتاب الفأل النجومى. كتاب المواليد مفرد. كتاب التشبيه والتمثيل كتاب المنتحل من أقاويل المنجمين فى الأخبار والمسائل والمواليد وغيرها[32].

وقد نقل المترجمون كتباً أخرى عديدة من الفارسية إلى العربية، فقد ترجم جُبله بن سالم «كتاب رستم واسفنديار»، و«كتاب بهرام شوس» وهما فى السير. وتُرجم من الكتب الدينية كتاب زرادشت المسمى «أفيستا» وما عليه من شروح. وكتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة، وهو أصل من اصول «ألف ليلة وليلة»، وغيره كثير من كتب القصص ككتاب بوسفاس، وكتاب خرافة ونزهة، وكتاب الدب والثعلب، وكتاب رُوزبه اليتيم، وكتاب نمرود[33]، وكتاب كُناش تيادورس، وكتب تياذوق متطبب الحجاج بن يوسف[34] وهى كُناش كبير ألفه لابنه، وكتاب إبدال الادوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها وشئ من تفسير أسماء الأدوية[35].

ولاشك أن «البرامكة» أصحاب الوزارة فى الدولة العباسية لعبوا دوراً هاماً فى نشر الثقافة الفارسية. ويذكر ابن النديم عند حديثه عن كتاب «المجسطى» فى الفلك

أن أول من اهتم بنقله، وترجمته «يحيى بن خالد البرمكي» الذى ندب لترجمته وتفسيره أبا حسان وسلمان صاحب بيت الحكمة فأتقنا ترجمته وتصحيحه[36].

وبالإضافة إلى ما ذُكر يورد ابن النديم[37] ثبتا بأسماء النقلة من الفارسى إلى العربى متضمنا موسى ويوسف ابنى خالد وكانا يخدمان داود بن عبد الله وينقلان له من الفارسية إلى العربية. التميمى واسمه على بن زياد، ومما نقله زيج الشهريار. الحسن بن سهل البلاذرى. أحمد بن يحيى بن جابر. إسحق بن يزيد ومما نقله كتاب سيرة الفرس المعروف باختيار نامه. محمد بن الجهم البرمكى. هشام بن القاسم. موسى بن عيسى الكردى. زادويه بن شاهويه الأصفهانى. محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى. بهرام بن مردان شاه. عمر بن الفرخان.

وقد امتازت معظم الترجمات من الفارسية إلى العربية بأن المترجم كان يتحرى الدقة أولاً فى الوقوف على أدق وأصح نص للكتاب الذى يترجمه، فكان يجمع أكبر قدر من نسخ الكتاب، ثم يقابل بعضها ببعض، وذلك حتى يتحاشى الأخطاء المختلفة للنّساخ فى معظم النسخ. وبعد أن ينتهى من عملية المقابلة ويضع يده على أقرب نص أراده صاحبه، يبدأ فى عملية الترجمة.

يذكر البيرونى[38] أن أبا على محمد بن أحمد البلخى الشاعر قد صحح كتاب الشاهنامه من كتاب سيّر الملوك الذى لعبد الله بن المقفع، والذى لمحمد بن الجهم البرمكى، والذى لهشام أبن القاسم، والذى لبهرام بن مردانشاه، والذى لبهرام بن مهران الأصبهانى، ثم قابل ذلك بما أورده بهرام الهروى المجوسى.

ويقول حمزة الأصفهانى فى كتابه «تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء» عن تواريخ الفرس: كلها مدخولة غير صحيحة لأنها نقلت بعد مائة وخمسين سنة من لسان إلى لسان ومن خط متشابه مرقوم الأعداد إلى خط متشابه مرقوم العقود، فلم يكن لى فى حكاية ما يقتضى هذا الباب ملجأ إلا إلى جمع النسخ المختلفة النقل. فاتفق لى ثمانى نسخ وهى: كتاب سير ملوك الفرس من نقل ابن المقفع، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكى، وكتاب تاريخ ملوك الفرس

المستخرج من خزانة المأمون، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه بن شهويه الأصفهانى، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهانى، وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهانى، وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه من بلاد فارس. فلما اجتمعت لى هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب[39].

وروى حمزة الأصفهانى أيضاً عن بهرام بن مردانشاه أنه قال: إنى جمعت نيفاً وعشرين نسخة من الكتاب المسمى خداى نامة حتى أصلحت منها تواريخ ملوك الفرس من لدن كيومرت والد البشر إلى آخر أيامهم بانتقال الملك منهم إلى العرب[40].

يتضح مما سبق أن حركة النقل من الفارسية إلى العربية قد نشطت نشاطاً ملحوظاً، ونقل على أثرها معظم علوم الفرس المعروفة آنذاك.

ولكن هل كان لهذه الحركة من أثر على المجتمع العلمى الاسلامى فى ذلك الوقت بصفة خاصة، وعلى الحضارة الإسلامية بصفة عامة؟

الواقع أن حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية قد أثرت تأثيراً بليغاً فى المجتمع العلمى الإسلامى، والحضارة الإسلامية بصفة عامة. فقد كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معاً، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها، ويرقّون أفكارهم وعقولهم، ثم هم يخرجون باللغة العربية أدباً وشعراً وعلماً، وليس ما يخرجونه نقلاً تاماً لكلام فارسى، ولكنه منبعث عنه ومتولد منه. وهؤلاء الفرس الذين تعّربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية، ملأوا الدنيا فى العصر العباسى علماً وحكمه وشعراً ونثراً، فيها العنصر الفارسى واضح جلىّ. ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها، فكان من نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شعر الشاعر منهم عربى كبشار، وأدب الأديب منهم عربى كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم

عربى كإبن المقفع وابن قتيبة والطبرى... الخ[41].

ومن آثار الفارسية فى العربية أن كلمة «زندقة» أصلها فارسى. يقول المسعودى[42]: إن الفرس حين أتاهم زرادشت بن اسبيمان بكتابهم المعروف بالبستاه باللغة الأولى من الفارسية، عمل له التفسير، وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحاً سماه البازند، وكان الزند بياناً لتأويل المتقدم المنزل. وكان من أورد فى شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذى هو البستاه، وعدل إلى التأويل الذى هو الزند، قالوا: هذا زندى، فأضافوا إلى التأويل، وأنه منحرف من الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى عن الفرس، وعربوه وقالوا: زنديق، والثنويه هم الزنادقة، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم.

وكان من أعظم التأثيرات الفارسية فى الحضارة الإسلامية أن يوجد بها كثير من الفرس كانوا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة، فالإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب، وحماد الرواية جامع المعلقات العشر، وراوى كثير من الشعر الجاهلى، وبشار بن بُرد أبرز المحدثين من الشعراء، وسيبويه الإمام المقدم فى النحو وتدوينه، والكسائى أحد الأئمة الأعلام فى النحو واللغة والقراءات، وهو أحد القراء السبعة، والفرّاء أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، وأبو عبيدة معمر بن المثنى العالم باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامها، وذو النزعة الشعوبية، أبو العتاهية شاعر الزهد، وابن قتيبة المؤرخ الأديب، صاحب التآليف الكثيرة ككتاب المعارف، وعيون الأخبار. كل هؤلاء - وغيرهم ممن لم نذكرهم - كانوا فرساً وكان لهم أثر كبير فى الثقافة العربية الإسلامية[43].

3- علوم الهند:

زادت العلاقات التجارية والثقافية بين المسلمين والهنود خلال العصر الأموى حين فتح المسلمون السند عام 91هـ/ 709م، وزادت العلاقات قوة فى عهد العباسيين[44]. وكانت بلاد السند الإقليم الوحيد الذى حكمه العرب مباشرة أو الذى احتك بهم مباشرة. ورغم أنه كان اقليماً بعيداً عن الخلافة إلا أنه كان الطريق الرئيسى الذى انتقلت من خلاله العلوم الهندية إلى بغداد[45].

لكن هل تأثرت حركة نقل وترجمة العلوم من الهندية إلى العربية ببعد المسافة بين الهند وبغداد؟ أم أن هذا العامل لم يكن له أهمية كبرى فى حركة النقل والترجمة؟ أم أن العرب فى حركة النقل الأولى وبداية الثانية كان لهم ميل أكثر فى بعض العلوم إلى نقل ما كتبه أهل اليونان، علماء وفلاسفة، على حين أنه فى البعض الآخر نقلت بعض العلوم من الهند؟ أم أن حركة النقل ساوت بين النقل من المصدرين؟ وهل تدخل العامل اللغوى فى حركة النقل عن الهندية فى ذلك الوقت؟ هل كان النقلة والتراجمة أقرب إلى اليونانية والسريانية فى الحلقة الأولى للترجمة، منهم إلى الهندية؟ وماذا يفسر لنا هذا الإقبال على ترجمة بعض الكتب مثل السندهند فى عصر المنصور، وهى فترة مبكرة، وترجمة بعضها الآخر فى فترة البيرونى وهى فترة متأخرة نسبياً؟

كل هذه التساؤلات قد تدور بالعقل ونحن بصدد الحديث عن الهند والعلوم الهندية كمصدر من مصادر المعرفة بالنسبة للمسلمين. وبطبيعة الحال لابد من التساؤل: أكان هذا المصدر منافساً للمصدر اليونانى، أم لا؟.

يذكر القفطى فى الأخبار[46] أنه كان لبعد الهند من بلادنا أن قلت تآليفهم عندنا فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل عن علمائهم، فمن مذاهب الهند فى علوم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عندهم وهى مذهب السندهند، ومذهب الأرجبهر، ومذهب الأركند، ولم يصل إلينا على التحصيل إلا مذهب السندهند، وهو المذهب الذى تقلده جماعة من علماء الاسلام وألفوا فيه

الزيجة. ففى عام 145هـ/ 700م قدم الفلكى يعقوب الفزارى لبلاط المنصور عالماً هندياً اسمه (منكه) فجاء بكتاب السندهند (السدهانتا) وهو رسالة فى علم الفلك على الطريقة الهندسية وهذه الرسالة ترجمها الفزارى الإبن[47] (إبراهيم)، فخلقت اهتماما جديداً بالدراسات الفلكية.

وبعد ذلك بقليل جمع محمد بن موسى الخوارزمى بين النهجين الإغريقى والهندى فى الفلك، فأصبح هذا الموضوع بعد ذلك فى غاية الأهمية بين الدراسات العربية[48].

ومن نقلة الهند يذكر ابن النديم[49] منكه، وكان فى جملة اسحق بن سليمان بن على الهاشمى ينقل من اللغة الهندية إلى اللغة العربية. وابن دهن الهندى، وكان إليه بيمارستان البرامكة، نقل إلى العربى من اللسان الهندى.

ومما وصل إلينا من علومهم حساب العدد الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، وهو أوجز حساب وأخصره، وأقربه تناولاً وأسهله مأخذاً يشهد للهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع.

ووصل إلى العالم الإسلامى من علومهم فى الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية «بيافر» وتفسيره ثمار الحكمة فيه أصول اللحون وجوامع تأليف النغم[50].

أما علم الطب فيقدم إبن النديم ثبتا يحتوى على أسماء كتب الطب الهندية التى وصلت إلى العالم الإسلامى يتضمن[51]: كتاب سسرد، عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد بتفسيره لمنكه الهندى فى البيمارستان ويجرى مجرى الكناش، كتاب استانكر الجامع تفسير ابن دهن، كتاب سيرك فسره عبد الله بن على من الفارسى إلى العربى، لأنه نُقل أولاً من الهندى إلى الفارسى. كتاب سندستاق، معناه كتاب صفوة النجح، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان، كتاب مختصر للهند فى العقاقير، كتاب علاجات الحبالى للهند، كتاب توقشتل، فيه مائة داء ومائة دواء، كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء، كتاب السكر للهند، كتاب أسماء عقاقير الهند، فسره منكه لاسحق بن سليمان، كتاب رأى الهندى فى أجناس

الحيات وسمومها، كتاب التوهم فى الأمراض والعلل لتوقشتل الهندى.

وفى موضع آخر من الفهرست يذكر صاحبه[52] أن الذى عنى بأمر الهند فى دولة العرب، يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بإحضار علماء طبها وحكمائها. ومن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكى بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة فى بلادهم، وأن يكتب لديه فكتب له هذا الكتاب: «كتاب فيه ملل الهند وأديانها».

أما عن الحساب، فقد اطلع العرب على حساب الهنود، وأخذوا عنهم نظام الترقيم، إذ رأوا أنه أفضل من نظام الترقيم على حساب الجمل. وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام، واختاروا سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية، وهى المستعملة الآن فى أغلب البلاد العربية (١، ٢، ٣، ٤، ٥) وعُرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية وهى المنتشرة فى المغرب والأندلس، ومنها دخلت اوربا وتعرف باسم الأرقام العربية (1. 2. 3. 4. 5)[53]. أما استخدام (الصفر) فقد عرفته الهند فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) غير أن العرب الذين نقلوه عن الهند فى الفترة ذاتها طوروا استخدامه وشكله، فاستخدموا الصفر على شكل النقطة (٠) لاسيما فى المناطق العربية المشرقية، بينما استخدم عرب المغرب الصفر على شكل دائرة فارغة (0)[54].

تلك كانت صورة عامة عن سيْر حركة الترجمة والنقل فى المجتمع العلمى الإسلامى، والتى بدأت فى العصر الأموى، ثم تطورت شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت ذروتها فى العصر العباسى.

ومما لاشك فيه أن هذا التطور قد أدى بطبيعة الحال إلى خلق جو علمى نشط يعمل فى إطاره المترجمون ولديهم برامج علمية معينة يسيرون وفقا لها فى أثناء نقلهم وترجمتهم لعلوم الأمم الأخرى إلى العالم الإسلامى.

وإذا كنّا نبحث عن وجود الجماعات العلمية داخل هذا المجتمع العلمى، فينبغى علينا أن نقترب أولاً من مفهوم الجماعة بصفة عامة.

من تعريفات الجماعة أنها: تجمع عدد - كبير أو صغير - من الأشخاص، خلال فترة زمنية محددة - قد تطول أو تقصر - بحيث يكون ثمة اتصال بينهم، أى تربطهم علاقات اجتماعية من نوع معين، متسمين بالتفاعل، واضعين كل منهم الآخر فى حسبانه وتقديره[55].

إن الدارسين والباحثين فى العلوم الاجتماعية والسيكولوجية حين يدرسون الجماعات الاجتماعية، فإنهم ينظرون إلى الجماعة على أنه من الواجب، أو من الضرورى، حتى يتحقق مفهوم وتصور الجماعة على مستوى الفعل والنشاط الاجتماعى، أن تتحقق مجموعة من العناصر المهمة التى تقف وراء فكرة الجماعة ذاتها. وهذه العناصر إنما تمثل التصور الذى يحقق وجود الجماعة، كجماعة أو فريق عمل يلتقى حول فكرة محدده يعمل من أجلها وفق أولويات تحددها لائحة العمل فى الجماعة التى قد تكون مدونة أو متعارف عليها ضمناً. وهذا يشير بالضرورة إلى امتثال الجماعة لخطة عمل، أو استراتيجية يعملون وفقا لها، أو إذا استخدمنا مصطلحاتنا الحديثة التى تسود فى كتابات فلاسفة ومؤرخى العلم المعاصرين، برامج للبحث العلمى[56] تحدد أولويات العمل العلمى، وتحدد فى الوقت نفسه طبيعة الإنجاز الذى يتعين على كل فرد من أفراد الجماعة أن يقوم به فى فترة زمنية معينة.

ولذا وجدنا بعض الكتّاب يشترطون مجموعة من العناصر الأساسية التى يجب توافرها أولاً لقيام الجماعة. وهذه العناصر هى:

1- الهدف المشترك، إذ لا يمكن لأى جماعة أن تتكون دون أن يكون لها هدف يسعى كل الأفراد إلى تحقيقه.

2- عدد من الأشخاص، فالأشخاص أساس تكوين الجماعة وعصبها الحى، فلا يجوز لفرد ما أن يكوّن جماعة مع نفسه. وتتكون الجماعة على الأقل من شخصين ويفضل وجود عنصر ثالث ليدعم ويقوى العلاقات الاجتماعية المتبادلة بينهم.

3- التفاعل الديناميى، فلن تستطيع الجماعة تحقيق أهدافها واستمرارها ما لم يكن هناك تفاعل دينامى مع الأعضاء يساعد كل منهم الآخر على فهم أدوارهم داخل الجماعة من أجل المحافظة على استمرارية الجماعة وتقدمها نحو تحقيق أهدافها المنشودة.

4- نمط العضوية، فقد تكون العضوية اجبارية مفروضة فتقلل من دافعية الانجاز، وعندما تكون العضوية نابعة من رغبة الأعضاء فى الانتماء إليها، فإن ذلك يعمل على تماسك الجماعة والاستمرار فى إنجازاتها.

5- نظم العلاقات، فالأساس الثانى بعد وجود الأشخاص يتمثل فى وجود نظم من العلاقات التى تربط الأعضاء مع بعضهم فى صلات وتفاعلات دينامية لتحقيق الأهداف المشتركة[57].

يمكننا إذن أن نضع المسألة بصورة أكثر تحديداً من خلال الوقوف على بنّية التصورات الأساسية الداخلة فيها. ونتبين إلى أى مدى كانت هناك جماعات علمية تعمل من خلال برنامج بحثى محدد. إذ من الواجب علينا أن نبحث عن أساس تكوين الجماعات العلمية العربية إبان عصر النقل والترجمة. والأهداف المشتركة التى التفت حولها. والبرنامج البحثى المحدد الذى يضع لائحة للأولويات. وطبيعة العلاقات التى نشأت بينهم ويجب أن نشير أيضاً إلى فكرتنا عن الجماعات، إذ إننا فى حديثنا نستخدم كلمة (الجماعات) وليس (الجماعة)، وهذا يعنى أننا نستخدم الكلمة فى صيغ الجمع، مما يدل على وجود كيانات علمية متعددة، لكل منها استعماله وطبيعته الخاصة. ويترتب على هذا أنه قامت علاقات من نوع آخر بين الجماعات وبعضها، مثل علاقات التعاون، أو التنافس ، أو الصراع. وهذا ما سنحاول الكشف عنه فى الصفحات التالية.

أولاً – جماعة حنين بن إسحق:

1- رئيس الجماعة «حنين بن إسحق»:

هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادى[58] النصرانى، ولد عام 194هـ / 809م، وتوفي عام 260هـ/ 875م، وذلك بحسب معظم المصادر التى أرّخت له[59]، والتى تكاد تتفق على هذه التواريخ.

شب حنين ولديه رغبة قوية فى دراسة الطب والصيدلة وذلك سيرا على درب أبيه الذى كان يعمل صيدلانياً[60] فى الحيرة فانتسب إلى أكاديمية الطب المشهورة فى جنديسابور آنذاك وتتلمذ على «يوحنا بن ماسويه» (ت 243هـ/ 857م). لكن سرعان ما ترك أستاذه لكراهية الأخير لأهل الحيرة، هؤلاء الذين لا يصلحون لدراسة الطب فى نظره.

فخرج حنين باكياً مكروباً لم ييأس، بل أكب على دراسة اللغة اليونانية حتى حذقها تماماً. وعندما حقق أمنيته، قصد البصرة، فأتقن فيها لغة الضاد، وبذلك استطاع أن يستقى العلوم الطبية من أساطنيها الأصليين، وهم: أبقراط، وجالينوس.... وغيرهم كثيرون[61].

وبعد إلمامه باللغات اليونانية والسريانية والعربية، قصد بغداد، وعمل مع جبرائيل بن بختيشوع طبيب المأمون الخاص، فترجم له من كتب جالينوس كتاب «أصناف الحميات» وكتاب «فى القوى الطبيعية» فأدرك جبرائيل ما لحنين من فطنة وكفاية لغوية، فامتدحه وشهد عند المأمون بأنه «عالماً بلسان العرب، فصيحا باللسان اليونانى، بالغاً فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين»[62]. وهو أيضا «أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية»[63]، وقد كان لذلك أكبر الأثر فى تقديمه للمأمون (الخليفة العباسى) الذى اشتهر بمحبة العلم وتقريب العلماء، بقطع النظر عن جنسيتهم أو ديانتهم.

وقد قلده المأمون رئاسة «بيت الحكمة» ذلك المعهد العظيم الذى يُعزى إليه

وإلى منشيئيه الفضل فى انطلاقه علمية مذهلة، أثمرت ما أطلق عليه «العصر الذهبى للعلوم الإسلامية».

لقد جمع «حنين» حوله فريقاً ممتازاً من المترجمين، وفاق نشاطه الخاص كمترجم الخيال[64]. وكان العمل فى بيت الحكمة برئاسته يجرى على قدم وساق، وساد بين المترجمين المشتغلين فيه من نصارى، وسريان، وفرس، وغيرهم «أخلاقيات العلماء من حب وتقدير وتسامح... ولم تعرف هذه المؤسسة صور التعصب لجنس معين أو دين معين»[65]. فكانت تضم حوالى تسعين شخصاً من المترجمين المدربين تلاميذ حنين، عملوا فى حرية تامة وتحت إشراف ابنه «اسحق» وابن أخته «حبيش بن الأعسم». وقد ترجم الأول أعمال بطليموس وأقليدس، وترجم الثانى أعمال أبقراط وديسقوريدس[66]. وكانت نتيجة ذلك أن أخرج علماء بيت الحكمة بفضل الحرية الفكرية التى عاشوها نفائس الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

مميزات وخصائص العمل العلمى لجماعة الترجمة:

يمكن استخلاص مميزات وخصائص العمل العلمى لجماعة الترجمة من البرنامج الذى اتبعه رئيس الجماعة، وحاول الأعضاء الالتزام به.

عمل حنين بن إسحق على إرساء قواعد علمية ثابتة ومكينة يمكن بفضلها أن ينتقل العمل العلمى الجاد إلى الآخرين، فكان أن التف حوله الأتباع الذين عملوا معه، وأنس بهم، وأكملوا مسيرته من بعده. عمل مترجماً، وكلف بإصلاح ترجمات غيره من النقلة.. فأخذ ينقل الكتب لكل طالب، وينقح ما ينقله الأتباع والنقلة الذين وجدوا المتسع فى «بيت الحكمة» لإظهار مواهبهم العلمية والفكرية. وكان التسابق بينهم فى الجودة عنواناً للدقة والاتقان، فضلاً عن حلاوة الأسلوب، وفصاحة اللغة، ورصانة العبارة، وتجانس التركيب. وكانت يد الأستاذ تمتد إلى أعمالهم لتزيدها حلاوة وتهذيباً[66].

وإلى جانب اتساع مجال نشاط حنين، فإن ميزته[67] تكمن فى الطريقة

اللغوية التى استعان بها فى تحقيق النصوص الإغريقية التى يمكن الوثوق بها، وفى فهمه المتناز للأصول.

كان حنين يراجع دائماً ترجماته السابقة ليقدم ترجمة أكثر دقة. وكان يحترم النص الأصلى من حيث المضمون، وفى كثير من الأحيان كان يلتزم بالشكل أيضاً. وهذا يعنى أنه يتميز بعمق النظرة وصحة الاستدلال، وإصابة الفكرة، فضلا عن التعبير الأنيق والتنغيم العذب، وكان يوفى الفكرة حقها، ولا يتسرع فى اعتبار هذه الكلمة أو تلك حشواً أو تزيداً. وقد برهن على أن المترجم عليه أن يقاوم ميله إلى الاختصار مضحيا بجملة هناك وكلمة هنا. ومن حيث أدوات الربط، وجدناه فى كثير من الحالات ينقل الصور الخيالية والأقوال الدارجة والكلمات المأثورة ووجوه البلاغة الأخرى من لغة إلى أخرى، وربما كان السبب الحقيقى فى هذا أن لكل لغة رصيدها واختلافها، وتباين نظرة الناطقين بها إلى الكون والأشياء[68].

وقد كان عمل حنين فى مجال الترجمة حافزاً له على الاشتغال بالطب، وهذه مسألة ينبغى النظر إليها فى الحكم على جهوده. كان الهدف الأساسى لجهود حنين بن اسحق – فيما يبدو – نقل مؤلفات الأطباء اليونان إلى اللغة العربية، على أن تكون الترجمة عربية واضحة ومفهومه على قدر الإمكان. فقد اعتمد حنين على ترجمة نصوص الكتب، كما اعتمد أيضاً على الشروح المصنفة عليها والملخصات التى أُعدت لها. وقد أطلق حنين على نتاج هذه الجهود عدة عناوين، صدرها بكلمة «ثمار» أو كلمة «تفسير لكتاب ....» أو «جوامع كتاب ....» أو «شرح كتاب ....»[69].

لقد امتدت جماعة حنين بن إسحق لتشمل عدداً كبيراً من المترجمين الذين أجادوا فن الترجمة، وشكلوا قوام المدرسة، ومنهم حبيش بن الأعسم، واسحق بن حنين، وغيره ممن عملوا تحت إشراف حنين بن اسحق بصورة دقيقة.

لقد تمثّل كل هؤلاء الطريقة التى وضعها حنين بن إسحق لنقل وترجمة الكتب من علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية. وقد أدى إلى ذلك نشاط ملحوظ فى وضع مؤلفات وكتابات العلماء السابقين أمام العلماء العرب.

ومما لاشك فيه أن الأتباع الذين عملوا مع حنين بن إسحق فى «بيت الحكمة» شكلوا مدرسة ذات طابع مميز. والمدرسة هنا نشأت داخل العمل الذى ترأسه حنين، والذى انبثق عن الدولة أصلاً. وربما جاءت الإشارات التى أوردتها الكتابات المختلفة لتؤكد أن قوام التلاميذ الذين التفوا حول الأستاذ وعملوا معه يتراوح عددهم بين التسعين والمائة[70]. وسوف نرجئ الحديث عن بنية تلك الجماعة إلى موضع لاحق من هذا الكتاب، وذلك بعد تناولنا للجماعات الأخرى التى عملت فى حقل الترجمة ونقل علوم الحضارات الأخرى.

ثانياً : جماعة ثابت بن قرة :

إذا كان جُلّ عمل جماعة حنين بن اسحق قد انصب على ترجمة ونقل المؤلفات الطبيجة، فضلا عن بعض الترجمات الفلسفية وغيرها، فإن جماعة ثابت بن قرة، وإن كانت قد قامت بنقل بعض المؤلفات الطبية والفلسفية ، إلا أن عملها الأساسى قد انصب على ترجمة المؤلفات الرياضية (الحساب والهندسة) . وبذلك يمكن اعتبار هذه الجماعة «جماعة ترجمة رياضية» فى مقابل «جماعة ترجمة حنين الطبية» .

وتتضح أهمية جماعة ثابت بن قرة باعتبارها حلقة معرفية من أهم حلقات تاريخ العلم العربى، إذ وضعت أمام المؤلفين العرب فى الرياضيات فيما بعد، ما ترجمته من رياضيات الأمم الأخرى. وقد مثلت المؤلفات المنقولة نقطة بداية المؤلفين العرب والمسلمين الذين درسوها ، ووقفوا على ما فيها ، ثم جاءوا بابتكاراتهم الخاصة .

فلقد وضع رئيس الجماعة ثابت بن قرة أسساً معينة سار عليها هو وأعضاء جماعته، منها ضرورة تحصيل العلم إلى حد الوصول إلى درجة الاتقان إذا استطاع الفرد ، وإجادة لغات الأمم الأخرى التى يتم النقل منها، فضلا عن إجادة اللغة العربية طبعا . ويبدوا أن هذه الأسس قد عملت بها معظم جماعات الترجمة، يدلنا على ذلك أن من تضلع فى ترجمة علم من العلوم ، كان عالما فيه ، فحنين بن إسحق كان طبيباً بارعاً ، وثابت بن قرة كان طبيباً ومهندساً حاذقاً ... إلخ .

ويمكن الإشارة إلى بنية جماعة ثابت بن قرة فيما يلى :

1- رئيس الجماعة «ثابت بن قرة» (221-288 هـ/ 835 -900م)[71]

هو أبن الحسن ثابت بن قرة بنات ثابت الحرانى الصابىء [72] . كان صيرفيا بحرّان استتصحبه محمد بن موسى بن شاكر لما انصرف من بلد الروم لأنه رآه فصيحاً ، فتعلم فى داره ، ثم أوصله بالمعتضد ، وأدخله فى جماعة المنجمين [73] . وكان ثابت حكيما فى أجزاء علوم الحكمة [74]، ولم يكن فى زمانه من يماثله فى

صناعة الطب ولا فى غيره من جميع أجزاء الفلسفة[75] ، فكان له براعــة فى المنطق والتنجيم والهيئة والحساب والهندسة . وذكر ابن جلجل [76] أن له كتباً كثيرة فى هذه الفنون، ومنها كتاب مدخل إلى كتاب أُقليدس عجيب، وهو - أى ثابت - من المتقدمين فى علمه جداً. ويؤيد ذلك ما ذكره الشهرزورى[77] من أنه جرى عند ثابت ذكر فيثاغورث وأصحابه، وتعظيم العدد الذى لا يُفهم معناه. فقال: إن الرجل وشيعته أجل قدراً وأعظم شأناً من أن يقع لهم سهو أو خطأ فى معرفة الأمور العقلية، فيجوز أن يكونوا قد وقفوا من طبيعة العدد علىّ أسرا لم تنته إلينا لانقراضها.

وخلاصة القول فى ثابت إنه قد بلغ فى تحصيل العلوم شأواً عظيماً إلى الدرجة التى معها نال تبجيل وتوقير المعتضد له. وليس أدل على ذلك من أنه طاف معه فى بستان ويد الخليفة على يد ثابت، فانتزع يده بغتة من يد ثابت، ففزع الأخير، فقال الخليفة: يا ثابت أخطأت حين وضعت يدى على يدك وسهوت، فإن العلم يعلو ولا يُعلى عليه[78]. وكان ثابت يجلس بحضرته ويحادثه طويلاً ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته[79].

وكان ثابت بن قرة من مشاهير نقلة العلوم فى الإسلام فكان جيد النقل إلى العربية، حسن العبارة، قوى المعرفة باللغة السريانية وغيرها[80]. ويشهد على ذلك كثرة مصنفاته التى ورد ذكر أسمائها فى معظم كتب التراث التى أرّخت له. فذكر له ابن جلجل[81] كتاباً واحداً هو «مدخل إلى كتاب أُقليدس». وذكر له إبن النديم[82] أربعة عشر كتاباً ورسالة. وعدد له القفطى[83] مائة وخمسة عشر كتاباً ورسالة. بينما انفرد ابن أبى أصيبعة[84] بإيراد ثبت مطول لأعمال ثابت بن قرة يشتمل على مائة وسبعة وأربعين (147) مصنفاً وهذه المصنفات تشتمل على مؤلفاته الشخصية، وما قام بنقله من اليونانية والسريانية، وذلك فى فنون شتى مثل الطب والفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والموسيقى ومذهب الصابئة.

يقول صاحب عيون الأنباء[85] عن أعضاء جماعة ثابت بن قرة: وكذلك

جاءت جماعة كثيرة من ذريته ومن أهله يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرج والتمهر فى العلوم. ويمكن الإشارة إلى بعض هؤلاء الأعضاء فيما يأتى:

2 - أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة (ت 331 هـ/ 942م):

ابن ثابت بن قرة، كان يلحق بأبيه فى معرفته بالعلوم واشتغاله بها وتمهره فى صناعة الطب[86]. فكان طبيباً مقدماً، [87] وله قوة بالغة فى عالم الهيئة[88]. وله مؤلفات كثيرة[89] ونقولات وترجمات من اليونانية والسريانية إلى العربية. فقد نقل[90]: نواميس هرمس والسور والصلوات التى يصلى بها الصابئون. إصلاحه لكتاب فى الأصول الهندسية، وزاد فى هذا الكتاب شيئاً كثيراً. مقالة أنفذها إلى الملك عضد الدولة فى الأشكال ذوات الخطوط المستقيمة التى تقع فى الدائرة، وعليها استخراجه للشئ الكثير من المسائل الهندسية. اصلاحه لعبارة أبى سهل الكوهى فى جميع كتبه، بسؤال أبى سهل منه ذلك. إصلاحه وتهذيبه لشئ نقله من كتاب يوسف القس من السريانى إلى العربى من كتاب أرشميدس فى المثلثات.

3- عيسى بن أسيد النصرانى:

كان ثابت يقدمه ويفضله. وقد نقل عيسى من السريانى إلى العربى بحضره ثابت. كتاب جوابات ثابت لمسائل عيسى بن أسيد[91]. ونقل له كتاب الوقفات التى فى السكون الذى بين حركتى الشريان المتضادتين[92].

ثالثاً - جماعة بختيشوع:

من أهم العائلات التى قدمت إلى بغداد، ولعبت دوراً مهماً فى حركة الترجمة، وتكاد تكون هى الجماعة الوحيدة التى انفردت بالترجمة الطبية دون غيرها، ساعدها على ذلك أن جميع أفرادها كانوا أطباء مهرة.

كما اختصت الجماعة بنوع آخر من العمل العلمى، وهو التعليم الطبى ،ففى عهد أبى جعفر المنصور نعهد كتب التأريخ الطبى تذكر لنا أن جورجيس بن بختيشوع جاء إلى بغداد واتصل بالخليفة.

كما أن جبريل بن بختيشوع لعب دوراً هاماً فى التعليم الطبى كذلك[93].

ونشير فيما يلى إلى بنية (أفراد) جماعة بختيشوع وجهودها فى حركة الترجمة.

1- جورجيس بن بختيشوع:

رئيس أطباء جنديسابور، استقدمه الخليفة المنصور إلى بغداد، وصار طبيبه الخاص إلى أن توفى فى خلافته. ونقل له كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية. لكن صاحب هذه الرواية[94] لم يذكر أياً من أسماء الكتب التى نقلها. فى حين يذكر له بعض الكتب المؤلفة مثل[95]: رسالة إلى المأمون فى المطعم والمشرب. كتاب المدخل إلى صناعة المنطق. كتاب الباه. رسالة مختصرة فى الطب، كُناشه. كتاب فى صنعة البخور، ألفه لعبد الله المأمون. وذكر له ابن النديم[96] كتاب الكُناش المعروف.

2- بختيشوع بن جورجيس:

ويكنى أبا جبريل، استقدمه الخليفة المهدى من جنديسابور ليحل محل أبيه جورجيس، فظل فى خدمته وخدمة الهادى والرشيد[97]. وكان طبيباً حاذقاً. ولمّا ملك الواثق الأمر كان محمد بن عبد الملك الزيات، وابن أبى داود يعاديان بختيشوع، وكان يضرمان عليه الواثق حتى نكبه وقبض أملاكه ونفاه إلى

جنديسابور. ولمّا اعتل الواثق بالاستسقاء وبلغ الشدة فى مرضه، أنفذ من يحضر بختيشوع، فمات الواثق قبل أن يوافى بختيشوع. ولمّا ولى المتوكل صلحت حال بختيشوع حتى بلغ فى الجلالة، والرفعة، وعظم المنزلة، وحسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة، ومبارة الخليفة فى اللباس والزى والطيب والفرش والتفسح فى النفقات مبلغاً يفوق الوصف[98].

وفيما يتعلق بدوره فى حركة الترجمة ذكر ابن أبى أصيبعة[99] أن حنيناً بن إسحق نقل له كتباً كثيرة من كتب جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية. وسوف نعود إلى هذا النص فى موضع لاحق.

وقد أسهم بختيشوع أيضاً فى حركة التعليم الطبى – كباقى أفراد الجماعة – يدلنا على ذلك أن ما ذُكر له من الكتب، كتابان تعليميان، هما: كتاب التذكرة، عمله لابنه جبريل[100]. كتاب فى الحجامة على طريق السؤال والجواب[101].

3- جبرائيل بن بختيشوع:

كان فاضلاً عالماً متقناً لصناعة الطب، جيداً فى أعمالها، حسن الدراية بها. يذكر إبنه عبيد الله فى كتاب له أن أبيه «جبرائيل» قصد طبيباً من أطباء المقتدر وخواصه كان يعرف بترمزه، فلازمه وقرأ عليه، وقرأ على يوسف الواسطى الطبيب، ولازم البيمارستان والعلم والدرس[102] فنبغ فى حياة أبيه وصار طبيباً لجعفر البرمكى، حتى قدمه إلى الخليفة الرشيد فصار طبيبه الخاص.ونزل لديه منزلة ممتازة وجعله رئيساً للأطباء. وظل على ذلك زمن الأمين والمأمون حتى توفى فى خلافته[103]... ولجبرائيل من الكتب: كناشه الكبير الملقب بالكافى. رسالة فى عصب العين. مقالة فى ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس المسمى ذيافرغما[104]. الروضة الطبية، نشره بول سباط سنة 1927.[105]

نقد وتقييم:

بعد هذه الجولة السريعة الموجزة التى أشارت إلى بعض أعضاء أشهر جماعات عصر الترجمة، نحاول الإجابة على الفرضيات المطروحة فى بداية الفصل فى نقاط محددة فيما يلى:

شهد المجتمع الاسلامى إبان عصر الترجمة الرسمى وجود جماعات علمية أساسها الأفراد: فلقد رأينا جماعة حنين بن اسحق بأعضائها الذين يشكلون أساس تلك الجماعة (حنين - ابنه اسحق - حبيش بن الأعسم... وغيرهم). وجماعة ثابت بن قرة بأعضائها (ثابت - ابنه سنان - عيسى بن أسيد النصرانى). وجماعة أسرة بختيشوع بأعضائها (جورجيس - بختيشوع - جبرائيل)، رأينا كيف لعبت تلك الجماعات العلمية دوراً بارزاً وملموساً فى نقل كثير من علوم الأمم الأخرى إلى العلم الاسلامى.

إن أهمية هذه الجماعات إنما تقاس أو تحدد بمقدار الناتج العلمى لعمل الجماعة ككل، وأثر ذلك على الأجيال العلمية اللاحقة. وأعمال جماعات الترجمة التى تناولناها إنما تمثل النصيب الأكبر من حركة الترجمة ككل، وذلك بفضل العمل الجماعى الذى يأتى انتاجه دائماً أكبر بكثير من انتاج الجهود الفردية.

وفى البنية الداخلية لكل جماعة نجد - بالإضافة إلى سيادة مبدأ التعاون بين الأفراد - إن أهم وأخطر الأعضاء هو رئيس الجماعة، وذلك إنما يرجع إلى مسئوليته عن الجماعة كلها، فيقوم - فضلاً عما كلف به نفسه من ترجمة وتأليف - بالإشراف والتوجيه، ومراجعة أعمال أفراد الجماعة. فحنين بن اسحق مثلاً الذى ترجم لجالينوس وحده ما يقرب من اثنين وتسعين مصنفاً باللغتين السريانية والعربية، وخمسة عشر كتاباً لابقراط بتفسير جالينوس، فضلاً عن مؤلفاته الشخصية، والتى تبلغ مائة مؤلف تبعاً لصاحب العيون[106]، تبحث فى فروع المعرفة المختلفة وتدور فى الأغلب حول الطب، والفلسفة، والمنطق، والتاريخ، والديانات بوجه عام. فهذا الكم الضخم من الأعمال - مع الأخذ فى الإعتبار

مبالغة ابن أبى اصيبعة – لم يمنع حنين بن اسحق كرئيس لجماعته من مباشرة أعمال أعضاء الجماعة، بل ومراجعة وإصلاح بعضها. فقد أصلح لابنه اسحق ترجمة اصطفن بن بسيل لكتاب علل النفس (لجالينوس)، وأصلح ترجمة حبيش لكتاب منافع الأعضاء (لجالينوس)، لإسقاط حبيش سبع عشرة مقالة من الكتاب. وأصلح أيضاً كتاب حيلة البرؤ الذى نقله حبيش بأكمله.

ومن الجدير بالاعتبار أن بعض الجماعات قد ضمت أعضاءاً من جماعات آخرى، أو أفراداً لا ينتمون إلى جماعات بالمعنى الواسع لمفهوم الجماعة. ومن ذلك أن رئيس «جماعة حنين بن اسحق» وهو حنين قد تعلم على، واشتغل مع يوحنا بن ماسويه (ت 243هـ/ 857م). وكان الأخير قد طرد حنيناً فى بداية الأمر من مجلسه زاعماً أنه لا يصلح للعلم. ويذكر صاحب العيون[107] أن بعد إختفاء حنين عن يوحنا بن ماسويه لمدة عامين لم يسمع فيهما الثانى أى شئ عن الأول، حدث أن وقع فى يد يوحنا بعض أعمال حنين المترجمة التى ترجمها وهو فى صحبة جبرائيل بن بختيشوع، فما أن رآها يوحنا حتى كثر تعجبه وقال لحاملها (وهو يوسف بن إبراهيم): أترى المسيح أوحى فى دهرنا هذا إلى أحد؟ فقال يوسف: ما أوحى فى هذا الدهر ولا فى غيره إلى أحد، ولا كان المسيح إلا أحد من يوحى إليه.. واستطرد يوسف قائلاً: هذا إخراج حنين بن اسحق الذى طردته من منزلك. فحلف بأن ما قاله له محال. ثم صدق القول بعد ذلك وأفضل عليه أفضالاً كثيرة.. فاشتغل عليه حنين بصناعة الطب، ونقل له كتباً كثيرة وخصوصاً من كتب جالينوس، بعضها إلى اللغة السريانية، وبعضها إلى العربية.

وهنا نجد حنين بن اسحق قد طبق مبدءاً من أهم المبادئ التى تقوم بين الأفراد والجماعات، وهو مبدأ التنافس "Compition" حيث جمع بينه وبين يوحنا بن ماسويه طبيعة مجتمعية واحدة أو اطار ثقافى وإيديولوجى واحد، وهذه الأمور من أبرز المستويات التى تعمل على تفسير السلوك التنافسى[108]. كما يقترب حنين هنا من مفهوم الجيل الثورى الذى نادى به توماس كون[109] فى القرن العشرين.

وكذلك تعلم رئيس الجماعة الثانية «ثابت بن قرة» على محمد بن موسى بن شاكر[110]، ثم تكونت جماعته من أعضائها المذكورين. أما جماعة أسرة بختيشوع، فقد سبق أن ذكرنا أن حنيناً بن اسحق قد تعلم على أحد أفرادها البارزين وهو بختيشوع ونقل له كتباً كثيرة من كتب جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية.

ومثل هذه الملاحظات التى وقفنا عليها فى تناولنا لجماعات الترجمة إن دلت على شئ، فإنما تدل على مدى التواصل العلمى بين أفراد الجماعات العلمية المختلفة، وهذه حقيقة علمية ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار عند الحديث عن النهضة العلمية التى شهدها المجتمع الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة.

وبالبحث عن الهدف المشترك الذى يسعى الأعضاء إلى تحقيقه من خلال انتمائهم إلى الجماعات العلمية، وجدنا أن معظم أعضاء هذه الجماعات قد انتموا إليها رغبة فى العلم الذى خلع على أهله فى ذلك العصر إجلالاً وتوقيراً من العامة فضلاً عن الخاصة. وقد عرف معظم خلفاء بنى العباس - لاسيما المأمون - بحبهم للعلم وأهله، وتقريبهم للعلماء هؤلاء الذين رغبوا - إلى جانب شغفهم بالعلم- فى عطايا الخلفاء والوزراء وهباتهم. وقد روى أن المأمون كان يعطى حنين بن اسحق وزن ما يترجمه ذهبا. وقد بلغ ما حصله بختيشوع بن جورجيس من وراء الاشتغال بالعلم حداً إلى درجة مباراة الخليفة فى اللباس والزى والطيب والفرش والتفسح فى النفقات مبلغاً يفوق الوصف. وها هو الخليفة «المعتضد» يصرح بخطئه حين وضع يده فى يد «ثابت بن قرة»، وعلل ذلك بقوله: «إن العلم يعلو ولا يُعلى عليه». فأى تبجيل وتوقير ورفعة منزلة للعلماء أكثر من ذلك؟!

أما عن نمط عضوية الأفراد داخل الجماعة، فلم نجد أياً من النصوص التى تشير إلى أن أحد الأعضاء قد انتمى إجبارياً إلى جماعته، بل على العكس وجدنا أن نمط العضوية كان نابعاً من رغبة الأعضاء فى الإنتماء إلى الجماعة. وقد ساد بين أعضاء الجماعات نظم من العلاقات قائمة على التعاون والمحبة تربطهم بعضهم ببعض من أجل تحقيق أهداف الجماعة ككل.

وإذا كانت الظروف المجتمعية قد ساعدت على ازدهار معظم الجماعات العلمية، فانها نفسها كانت بمثابة معوقات أثرت فى نشاط بعض الجماعات فى فترات معينة. ففى الوقت الذى نجد فيه الخليفة المأمون يشجع العلماء ويقربهم من بلاطه، نجد المتوكل يتعمد إهانة بعض العلماء ويعمل على إذلالهم. وقد حدث ذلك مع رئيس جماعة الترجمة الأولى «حنين بن اسحق» الذى نال إذلال المتوكل له بحبسه وضربه ومنعه من مزاولة نشاطه العلمى، وكان ذلك بسبب مكيدة دبرها له الحاسدون والجاحدون عليه من أعدائه. يقول حنين: «إنه لحقنى من أعدائى ومضطهدىّ الكافرين بنعمتى الجاحدين لحقى، الظمالين لى، المتعدين علىّ من المحن والمصائب والشرور ما منعنى من النوم وأسهر عينى، وأشغلنى عن مهماتى» .

ومع أن بختيشوع بن جورجيس قد بلغ منزلة رفيعة فى عهد المتوكل، إلا أنه قد نال سخط وغضب هذا الخليفة، فقبض عليه ونفاه إلى صحراء البحرين[11] .

ومما لاشك فيه أن مثل هذه الحوادث والنكبات من أشد المؤثرات السيئة التى تُثبّطُ همة العالم، الأمر الذى ينعكس على نشاطه العلمى بالإجمال. ولكن لحسن الحظ أن النكبات والعثرات التى تعرضت لها بعض الجماعات العلمية لم تستمر طويلاً، وعاد العلماء المنكوبون إلى مزاولة نشاطهم العلمى.

وإذا كان من أخص خصائص العلماء تميّزهم بصفات وشيم متعارف عليها على مر العصور، فإن جماعة حنين بن إسحق قد تمسكت بالمبادئ والتقاليد العلمية النبيلة. فها هو رئيس الجماعة يقدم التضحية بحياته على أن يركّب دواءً يقتل به انسان حتى ولو كان عدو له[112].

كذلك ذكر ابن أبى اصيبعة[113]: أن جنس جورجس وولده كانوا أجمل أهل زمانهم بما خصهم الله به من شرف النفوس، ونبل الهمم، ومن البر والمعروف والأفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدى المنكوبين على ما يتجاوز الصفة والشرح.

هوامش ومراجع الفصل الحادى عشر

(1) د. ماهر عبد القادر محمد، دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1991، ص 53.

(2) د. محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ص 74 - 73.

(3) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة 1955، ص 61.

(4) راجع فى ذلك بحث الدكتور ماهر عبد القادر محمد على فى مؤتمر الأسس غير الصورية للعقل، الذى عقد فى جامعة نيوكاسل باستراليا 1993.

Aly, Maher., The Nature Of Reason In Arabian Science, In The works of the international working Conference on "Non- formal foundations of reason", The univesity of new castle, new south Wales, Australia, 1993.

وأيضاً:

د. ماهر عبد القادر محمد، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت 1988 ص 16 - 18.

(5) ابن النديم، الفهرست، طبعة القاهرة القديمة 1348 هـ، ص 338. وراجع أيضا فى هذا:

– د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت 1970.

– د. ماهر عبد القادر محمد، حنين بن اسحق، العصر الذهبى للترجمة، دار النهضة العربية (د.ت).

(6) Holt, P. M. & Iambton, A. K. S & LEWIS. B., (ed) the Cambridge history of Islam, Vol. 2B, Cambridge University press, London, 1970, P. 774.

(7) الفهرست، ص 338 .. ويذكر الطبرى فى تاريخه أن تدوين الدواوين كان فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب، إذ من تحليله للروايات التاريخية المختلفة ينتهى إلى أنه أول من دوّن للناس فى الاسلام الدواوين. إذ أنه استشار المسلمين فى تدوين الدواوين، فقال له على بن أبى طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال، فلا تمسك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت من الشام، فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً، وجندوا جنداً، ، فدوّن ديواناً وجند جنداً. فأخذ بقوله (تاريخ الطبرى، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالث، بيروت 1411 - 1991م، جـ2، ص570).

(8) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، دار المعارف، الطبعة الثالثة 1973، ص 131.

(9) The Cambridge History Of Islam. OP. Cit. p. 768.

(10) ماكس ماير هوف، من الإسكندرية إلى بغداد، بحث صدر فى كتاب: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية: دراسات لكبار المستشرقين، نشره عبد الرحمن بدوى، مكتبة النهضة المصرية 1940، ص 53 - 54.

(11) نيقولا ريشر، تطور المنطق العربى، ترجمة محمد مهران، دار المعارف، ط الأولى 1985، ص 129 -128.

(12) راجع M.M. SHARIF، الفكر الاسلامى منابعه وآثاره، ترجمة أحمد شلبى، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصرية 1975، ص 79 - 80.

وأيضاً: عبد الأمير المؤمن، الطاقة المحركة لانتقال العلوم إلى الحضارة الاسلامية، بحث ضمن مجلة الجامعة الاسلامية الصادرة عن الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية لندن، العدد السابع تموز - أيلول 1955، ص 126 - 130.

(13) د. ماهر عبد القادر محمد، التراث الإسلامى، العلوم الإساسية، المركز المصرى للدراسات والأبحاث، الاسكندرية بدون تاريخ، ص 34.

(14) أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربى، الطبعة العاشرة، بيروت (د.ت)، جـ1، ص 265 - 266.

(15) راجع د. عامر ياسين النجار، حركة الترجمة وأهم أعلامها فى العصر العباسى، دار المنار القاهرة 1993 ص 9.

وأيضا: - أحمد أمين، المرجع السابق 266/1 - 267.

(16) د. ماهر عبد القادر محمد، حنين بن اسحق، العصر الذهبى للترجمة ص 27.

(17) جاء فى فهرست ابن النديم، وأخبار القفطى، وعيون إبن أبى أصيبعة، وتلويحات السهروردى.. وغيرهم: أن الذى دفع المأمون إلى ترجمة كتب الحكمة هو رؤيته لأرسطو فى منامه، فسأله المأمون قائلاً: ما الحسن؟ فقال أرسطو: ما حُسن عند العقل. قال المأمون: ثم ماذا؟ قال: ما حُسن فى الشرع، قال: ثم ماذا؟ قال أرسطو: ما حُسن عند الجمهور.

فمثل هذه الرواية إن صحت فإنها لا تعبر إلا عن حب وشغف المأمون بالعلم. ولا يصح أن تكون أحد أسباب حركة الترجمة، إذ أن هذه الحركة قد بدأت قبل عصر المأمون، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الرواية قد اشتملت على ألفاظ معتزلية بالدرجة الأولى مثل «الحسن» الذى يقابله «القبح». وهما أحد مبادئ المعتزلة الرئيسية. من ذلك نرجح أن تكون هذه الرواية من قبيل التلفيقات التى اصطنعت لتأييد مذهب الأعتزال الذى آمن به المأمون وجعله مذهباً رسمياً للدولة. ومع ذلك ربما يكون حلم المأمون بمثابة الإذن الرسمى لحركة الترجمة.

(18) M.M. SHARIF، الفكر الرسلامى، منابعه وآثاره، م.س، ص 84 - 85.

(19) د. ماهر عبد القادر محمد، حنين بن اسحق العصر الذهبى للترجمة، م.س، ص 26.

(20) نيقولا ريشر، تطور المنطق العربى، م.س، ص 129 - 130.

(21) الفهرست ص 341.

(22) دلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانته فى التاريخ، ترجمة تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة بدون تاريخ ص 128.

(23) نفس المرجع، ص 129.

(24) شوقى ضيف، العصر العباسى، م.س، ص 130 - 131.

(25) أحمد أمين، ضحى الأسلام 176/1.

(26) ابن النديم، الفهرست 185.

(27) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزى عطوى، طبعة بيروت بدون تاريخ جـ 1، ص193 .

(28) اسمه بالفارسية روزبه، ويكنى قبل اسلامه أبا عمرو، فلم أسلم اكتنى بأبى محمد، والمقفع بن المبارك، وإنما تقفع لأن الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة فى مال احتجنه من مال السلطان ضرباً مبرحاً فتقفعت يده، وأصله من حوز مدينة من كور فاس (الفهرست 172). وتوفى عبد الله بن المقفع فيما بين أعوام 142 - 145 هـ/ 759 - 762م.

(29) ابن النديم، الفهرست 172 .

(30) القفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة 1326 هـ، ص 148 - 149 .

(31) ابن النديم، الفهرست ص 172 .

(32) القفطى، المرجع السابق، ص 168 - 196 .

(33) أحمد أمين، ضحى الاسلام 179/1 .

(34) ابن النديم، الفهرست 422 .

(35) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الاطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار، بيروت (د.ت)، ص 181 .

(36) راجع، عامر ياسين النجار، حركة الترجمة وأهم أعلامها فى العصر العباسى، م.س، ص40 .

(37) الفهرست 342.

(38) البيرونى، الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ، ص99.

(39) أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامه، ترجمة الفتح بن على البندارى، تحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثانية 1993، جـ 1، ص 33 -34 .

(40) الشاهنامه، ص 32 - 33.

(41) أحمد أمين، ضحى الاسلام 179/1 .181 .

(42) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة، بيروت، ط الأولى 1965، جـ1، ص 275.

(43) ضحى الاسلام، 192/1.

(44) د. عامر النجار، مرجع سابق، ص 41.

(45) شاخت وبوزورث، تراث الاسلام، ترجمة محمد زهير السمهورى وآخرين، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، ط الثانية 1988، جـ1، ص 196.

(46) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 175.

(47) د. ماهر عبد القادر محمد، التراث والحضارة الإسلامية، م س، ص 61.

(48) دلاسى أوليرى، مرجع سابق، ص 123.

(49) الفهرست، ص 342.

(50) القفطى، الأخبار، ص 175.

(51) الفهرست، ص 412.

(52) الفهرست، ص 484.

(53) د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف ط الأولى 1966، ص 95.

(54) عباس سليمان، حسان حلاق، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، دار المعرفة الجامعية 1998، ص 184 - 185.

(55) د. غريب سيد أحمد، المدخل إلى دراسة الجماعات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية 1993، ص 13.

(56) راجع فى هذا: إمرى لاكاتوش، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 2000.

(57) راجع د. ماهر محمود عمر، سيكولوجية العلاقات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية (د.ت)، ص 225 - 224.

(58) العبَّاد: قوم من قبائل نصرانية شتى، اجتمعوا، وانفردوا عن الناس فى قصور ابتنوها بالحيرة، وتدينوا بالنصرانية، وسموا أنفسهم «عبيد الله» ثم رجعوا عن هذه التسمية لمشاركة المخلوق فيها للخالق، فيقال عبيد الله، وعبيد فلان، وسموا أنفسهم باسم «العباد» لاختصاص الله به، فيقال عباد الله، ولا يقال عباد فلان.

(59) أنظر، ابن النديم، الفهرست، ص 409، الأخبار، ص 119، ابن جلجل، الطبقات، ص68، الشهرزورى، نزهة الأرواح، ص 491، إبن أبى أصيبعة، ص 257.

(60) خير الدين الزركلى، قاموس تراجم الرجال والنساء، جـ2، ص 325.

(61) حنين بن اسحق، المسائل فى الطب، تحقيق د. محمد على أبو ريان وأخرين، دار الجامعات المصرية 1978 ص 8، 9،

(62) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص 68.

(63) إبن أبى إصيبعة، عيون الأنباء، ص259.

(64) The Cambridge History Of Islamic Civilization. Vol2. P.678.

(65) د. ماهر عبد القادر محمد، دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص 103.

(66) Stephen F. Mason. A history of the sciences. first collier books edition. New york 1962. p. 103.

(67) د. ماهر عبد القادر محمد، حنين ابن اسحق.. ص147.

(68) شاخت وبوزورث، تراث الاسلام.. ص 89.

(69) د. ماهر عبد القادر محمد، حنين إ بن أسحق.. ص140 - 141.

(70) حنين بن إسحق، المسائل فى الطب، ص 449.

(71) انفرد أبى أصيبعة بذكر مولده سنة 221هـ.

(72) نسبة إلى أو طاط ابن نبى الله أرديس عليه السلام (عيون الأنباء .. ص 295) وكان ثابت رئيس الصابئة ببغداد فى زمانه.

(73) ابن النديم ، الفهرست ص380 ، والقفطي ، الأخبار ، ص81 .

(74) الشهرزوري ، تواريخ الحكماء ، ص 595.

(75) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء، ص295 .

(76) طبقات الأطباء والحكماء ، ص75 .

(77) د. ماهر عبد القادر محمد، حنين بن إسحق، ص 148.

(78) نزهة الأرواح.. ص 595 - 596.

(79) نزهة الأرواح، ص 595.

(80) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول دار الرائد اللبناني 1983، ص 265

(81) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص 295.

(82) طبقات الأطباء والحكماء، ص 75.

(83) الفهرست، ص 318. 384.

(84) الأخبار، ص 81 - 82.

(85) عيون الأنباء، ص 289 - 300.

(86) نفس المرجع، ص 300.

(87) عيون الأنباء، ص 300.

(88) الفهرست، ص 421.

(89) عيون الأنباء، ص 300.

(90) وهي: أ- رسالة في تاريخ ملوك السريانيين. ب- رسالة في الاستواء. جـ- رسالة في سهيل. د- رسالة إلى بحكم. هـ- رسالة إلى ابن رايق. و- رسالة إلى أبي الحسن بن عيسى. ز- الرسائل السلطانيات والاخوانيات. ح- السيرة وهي في أجزاء وتعرف بكتاب التاجي صنفه لعضد الدولة وتاج الملة، تشتمل على مفاخره ومفاخر الديلم وأنسابهم وذكر أصولهم وأسلافهم. ط- رسالة في النجوم. ى- رسالة في شرح مذهب الصابئيين. ك- رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب لسبعة. ل- رسالة في الفرق بين المترسل

والشاعر. م- رسالة فى أخبار آبائه وأجداده وسلفه (عيون الأنباء ص 304).

(91) عيون الأنباء، ص 304.

(92) الفهرست، ص 380.

(93) عيون الانباء، ص 298.

وهناك من نسل ثابت بن قرة أيضا: أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة (ت 975/365م) كان طبيباً محذقاً (الفهرست 421) فاضلاً يلحق بأبيه فى صناعة الطب (عيون الأنباء 304) عالماً بأصوله فكاكاً للمشكلات من الكتب. وكان يتولى تدبير المارستان ببغداد فى وقته (الأخبار 77). ولم تذكر معظم المصادر التاريخية لثابت هذا من الكتب سوى كتاب التاريخ المشهور فى الآفاق.. وهو من سنة خمس وتسعين ومائتين إلى حين وفاته. ولم تشر معظم المصادر أيضاً إلى أى جهود له فى مجال الترجمة.

(94) د. ماهر عبد القادر محمد، مقدمة فى تاريخ الطب العربى، ص 23.

(95) ابن أبى اصيبعة، عيون الأنباء، ص 183.

(96) نفس المصدر، ص 201.

(97) الفهرست، ص 412.

(98) ابن جلجل، طبقات الأطباء، هامش ص 64.

(99) القفطى، الأخبار، ص 72.

(100) عيون الأنباء، ص 258 - 259.

(101) الفهرست، ص 413.

(102) عيون الأنباء، ص 209.

(103) نفس المصدر، ص 209 - 210.

(104) ابن جلجل، الطبقات، ص 64.

(105) عيون الأنباء، ص 214.

(106) ابن جلجل، الطبقات، ص 64.

(107) أنظر ثبت هذه المؤلفات فى ابن اصيبعة، ص 255 وبعدها.

(108) عيون الأنباء، ص 259.

(109) راجع عبد الله عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 211.

(110) د. ماهر عبد القادر حمد، تركيب المجتمعات العلمية، بحث ألقى فى ندوة عاطف غيث العلمية كلية الآداب 26 - 28 - 1990، ص 14.

(111) انظر الفصل الخاص بجماعة بنى موسى من هذا البحث.

(112) أنظر تفاصيل محنة حنين ونكبته فى ابن أبى اصيبعة، عيون الأنباء، ص

(113) راجع: تاريخ الطبرى 327/5.

(114) يذكر ابن العبرى أن المأمون قال لحنين: أريد أن تصف لى دواء يقتل عدواً نريد قتله، وليس يمكن باشهار هذا ونريده سراً. فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها، فان أحب أن أمضى واتعلم فعلت. فقال هذا شئ يطول بنا. ثم رغّبهُ وهددهُ وحبسهُ فى بعض القلاع سنة، ثم أحضره وأعاد عليه القول، وأحضر سيفاً ونطعاً. فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فاننى أقتلك. قال حنين: لى رب يأخذ لى حقى غداً فى الموقف الأعظم. فتبسم المأمون وقال له: طب نفسا فإننا أردنا امتحانك والطمأنينة إليك. فقبل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة: ما الذى منعك من الإجابة مع ما رأيتهُ من صدق الأمر منا فى الحالين. قال حنين: شيئا هما، الدين والصناعة. أما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا، فكيف ظنك بالأصدقاء. وأما الصناعة فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جُعل فى رقاب الأطباء عهد مؤكد بإيمان مغلظة أن لا يعطوا دواءً قتالاً لاحد. فقال الخليفة: انهما شرعان جليلان (تاريخ مختصر الدول ص 251 - 252)

(115) عيون الأنباء، ص 198.



الخاتمـــــة



خاتمـة الكتاب

استعرضنا فى كتابنا هذا تاريخ الطب فى الحضارات السابقة على الحضارة العربية الاسلامية. فعرضنا لتاريخ الطب فى مصر القديمة، والحضارة البابلية، والحضارة الفارسية، والحضارة الهندية، والحضارة الصينية، والحضارة اليونانية.

وقفنا على تطور الطب فى مدرسة الاسكندرية القديمة، ثم الطب العربى قبل ظهور الاسلام، وعرجنا منه إلى وقفة طويلة مع الطب النبوى، ثم تطوره فى الامبراطورى الأموية.

ولعلّنا لاحظنا بعد ذلك كله أن هذه الحضارات قد شهدت تواصلا علمياً ومعرفياً بين بعضها والبعض الآخر. وهذا الأمر إن دل على شئ، فإنما يدل على أن التواصل العلمى والمعرفى بين أجيال العلماء والباحثين هو الشرط الهام والضرورى للتقدم العلمى.

وانطلاقاً من قاعدة التواصل العلمى والمعرفى هذه، فان التراث الطبى للحضارات القديمة قد شَكَّلَ اساساً معرفياً كان لابد منه لانطلاق، ثم ازدهار حركة الطب العربى إبان النهضة العلمية فى الحضارة العربية الاسلامية الممتدة من أواخر القرن الثانى الهجرى، وحتى القرن السادس الهجرى.

ولقد رأينا كيف أن حركة الترجمة والنقل قد مثلت المنفذ الحيوى، والجسر القوى الذى عبرت خلاله علوم وثقافات الأمم الأخرى إلى العالم الإسلامى. وكانت العلوم المنقولة – وفى مقدمتها الطب – بمثابة الاساس الذى انطلق منه علماء ومفكروا الحضارة الاسلامية، فأتوا بإضافات وابتكارات علمية جديدة تحسب لهم إلى اليوم.

وتحتاج فترة ازدهار علوم الحضارة العربية الاسلامية إلى مؤلفات قائمة بذاتها. وفيما يخص علم الطب، فقد وفقنا الله فى تأليف ونشر كتاب مستقل عن

أهم وأخطر أطباء المسلمين، بل وحجة الطب فى أوربا حتى العصور الحديثة، ألا وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى. والكتاب بعنوان: «الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ العلم العربى» (صدر عن دار ملتقى الفكر بالاسكندرية 1999.

أسال الله العلى القدير أن يوفقنا فى إخراج المزيد من المؤلفات «فى» تاريخ حضارتنا العربية الاسلامية، والتى مازالت تحتاج إلى جهد الباحثين المخلصين للوقوف على حجمها الحقيقى، خاصة فى هذه الحقبة من تاريخ البشرية، حيث يشهد العالم محاولة «ذوبان» الثقافات، و«طمس» الهويات، وذلك فيما يُعرف اصطلاحاً بـ «العولمة».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم

فهرس الكتاب

أعمال الدكتور خالد حربى

1- الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ العلم العربى . الطبعة الأولى . ملتقى الفكر. الإسكندرية 1999 ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية ، 2005 .

2- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها العلمية . الطبعة الأولى ، ملتقى الفكر، الإسكندرية ، 1999 .

3- بُرء ساعة للرازى (دراسة وتحقيق) ، الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية ، 1999 ، الطبعة الثانية . دار الوفاء. الإسكندرية 2005 .

4- خلاصة التداوى بالغذاء والأعشاب ، الطبعة الأولى، ملتقى الفكر. الإسكندرية، 1999 ، الطبعة الثانية 2000 . توزيع مؤسسة أخبار اليوم . الطبعة الثالثة. دار الوفاء، الإسكندرية 2005 .

5- الأسس الإبستمولوجية لتاريخ الطب العربى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ، 2002 .

6- الرازى فى حضارة العرب (ترجمة وتقديم وتعليق) . الطبعة الأولى ، دار العرب، الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002 .

7- سر صناعة الطب للرازى (دراسة وتحقيق) ، الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002 ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية 2005 .

8- كتاب التجارب للرازى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة العلمية ، الإسكندرية 2002 ، الطبعة الثانية، دار الوفاء الإسكندرية، 2005 .

9- كتاب جراب المجربات وخزانة الأطباء للرازى (دراسة وتحقيق) ، الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ، 2005 .

10 - العولمة بين الفكرين الإسلامى والغربى "دراسة مقارنة" ، الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية ، 2003 .

11- المدارس الفلسفية فى الفكر الإسلامى (1) الكندى والفارابى "رؤية جديدة" ، الطبعة الأولى، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 2003 .

12 - دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (1) علم المنطق الرياضى ، الطبعة الأولى، دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 .

13 - دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (2) الغائية والحتمية وأثرهما فى الفعل الإنسانى . الطبعة الأولى . دار الوفاء . الإسكندرية 2003 .

14 - دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (3) إنسان العصر بين البيولوجيا والهندسة الوراثية ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء، الإسكندرية، 2003 .

15 - الأخلاق بين الحلال والحرام، والصواب والخطأ ، الطبعة الأولى، منشأة المعارف. الإسكندرية 2003 .

16 - العولمة وأبعادها ، ضمن مجلد "رسالة المسلم فى حقبة العولمة" الصادر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، رمضان 1433 هـ. نوفمبر 2003.

17- دور الاستشراق فى موقف الغرب من الإسلام وحضارته (بالإنجليزية)، دار الثقافة العلمية ، الإسكندرية، 2003 .

18- شهيد الخوف الإلهى الحسن البصرى، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية، 2003 .

19 - بنيّة الجماعات العلمية العربية الإسلامية ، الطبعة الأولى، دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 .

20 - دراسات فى التصوف الإسلامى ، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية، 2003 .

21 - علوم الحضارة الإسلامية وأثرها فى الآخر ، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2005 .

22 - مقالة فى النقرس للرازى (دراسة وتحقيق) ، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2005 .

23 - التراث المخطوط : رؤية فى التبصير والفهم (1) علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، 2005 .

24 - التراث المخطوط : رؤية فى التبصير والفهم (2) المنطق ، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ، 2005 .

25 - علوم حضارة الإسلام وأثرها فى الحضارة الإنسانية ، سلسلة كتاب الأمة، وأثرها فى الحضارة قطر ، 2005 .

26 -ملامح الفكر السياسى فى الإسلام. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية، 2005 .

